بسم الله الرحمن الرحيم

أزمة الفكر الإسلامي الحديث

كتابخانه تخصصي فقه و اصول
شماره ثبت: ٧٢٢٤
ر ١٥٦
٤٠١٨

الدكتور محمد عمارة

أزمة الفكر الإسلامي الحديث

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

سلسلة
نقد العقل المعاصر

تنسيق وتحرير
عبد الواحد علواني

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٤٨,٠١٣
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ١١٥٨,٠١٣
الرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-470-0
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-539-1
الرقم الموضوعي: ٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية
عنوان السلسلة: نقد العقل المعاصر
عنوان الحلقة: أزمة الفكر الإسلامي الحديث
منسق السلسلة: عبد الواحد علواني
المؤلف: د. محمد عمارة
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: مطابع المستقبل - بيروت
تصميم الغلاف: سرور علواني
عدد الصفحات: ١٦٠ ص
قياس الصفحة: ١٢ × ١٧سم
عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار الفكر المعاصر
ساقية الجنزير، خلف الكارلتون
ص.ب: ١٣٦٠٦٤ تلفاكس: ٨٦٠٧٣٩
بيروت - لبنان
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

الطبعة الأولى

1419هـ = 1998م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المحتوى	٥
تمهيد	٧
١ ـ العقل .. وتحريره .. ماذا يعني ؟ وماهية التحرير	١٩
٢ ـ علاقة الجديد والتجديد بالتراث	٣٠
٣ ـ الهوية الثقافية بين (الأصالة) و (المعاصرة)	٣٦
٤ ـ العلاقة مع الحضارات الأخرى	٥٥
٥ ـ انقسام العقل المسلم حول مرجعية المشروع الحضاري	٦٦
١ ـ تيار التقليد والمحاكاة للموروث	٨١
٢ ـ تيار المحاكاة والتقليد للوافد الغربي (التغريب)	٨٧
٣ ـ تيار الإحياء والتجديد	٩٦
٤ ـ و ... من التغريب إلى التجديد	١٢٢
وأخيراً	١٥١
المصادر	١٥٧

تمهيد

ونحن نتحدَّث عن (أزمة الفكر) - في المحيط الإسلامي - نستطيع ، بل يجب أن نستحضر النُّبوءة النَّبوية التي تحدَّث فيها رسول الله ﷺ ، عن موقف الطوائف والأجيال والتَّيارات وأصناف الناس من فكر الإسلام وعلمه ومنهجه .. ففي هذا الاستحضار - فضلاً عن العظة والاعتبار - قبس من نور النُّبوة يضيء طريق الخروج من هذه (الأزمة) التي تمسك بخناق العقل المسلم والأمة المسلمة في هذا العصر الذي نعيش فيه ...

ففي الحديث الذي يرويه أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - يقول رسول الله ﷺ : « إن مثل ما بعثني الله ، عزّ وجلّ ، به من الهُدَى والعلم كمثل غَيْث أصاب أرضاً ، فكانت منه :

• طائفة قبلت ، فأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير .

● وكانت منهـا : أجـادب ، أمسكت المـاء ، فنفـع الله ، عزّ وجلّ ، بها ناساً فشربوا فرعوا وسقوا وزرعوا وأسقوا .

● وأصابت طائفة منها أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك مـاء ولا تنبت كلأ .

فذلك مثل :
من فقـه في دين الله ، عزّ وجلّ ، ونفعـه الله ، عزّ وجـلّ ، بما بعثني به ، ونفع به ، فَعَلِمَ وعَلَّم .

ومثـل : من لم يرفـع بـذلـك رأسـاً ، ولم يقبـل هـدى الله ، عزّ وجلّ ، الذي أُرْسِلتُ به »[١] .

لقد جاء الإسلام باعتباره الحلقة الخاتمة في سلسلة الرسـالات السماويـة التي كانت حلقـات تجـديـد للـدّين الإلهي الـواحـد ، وللشرائـع الإلهيّـة المتعـدّدة بتعَـدُّد وتطـوُّر واختـلاف أُمم الرِّسـالات .. ولقـد كان الجهـاد الأول والأكبر الـذي قـام المسلمون الأوائل بفريضتـه ، هـو الـوعي بهـدي الله وعلم النُّبـوة

(١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

ومنهاج هـذا الـدّين ، الأمر الـذي أثمر الأمـة التي قبلت الإسلام وأقبلت عليه ، فتوحَّدت به ومعه وفيـه ، فكان الوعي بـالـذات الإسلاميـة ، والانتماء إلى خصـائصهـا ، والانخراط في مـوكبهـا ، والجهـاد في سبيـل (التِّقنيـة الإسـلاميـة) ، عنـدمـا تجسَّـدت (العقيدة) نموذجاً حيّاً في أمة المسلمين وفي دار الإسلام ...

فالعقل الذي أصبح إسلاميّاً ، بعد أن كان جاهليّاً ـ جاهلية العرب أو الفرس أو الروم ـ قـد قرأ وتـدبَّر ووعى (كتـاب الوحي) و (كتـاب الكـون) ، فـأبـدع علـوم الحضـارة وأقـام صروح المدنيّة ، بعـد أن أضـاف إلى إبـداعـه المواريث الفكريـة القديمة ، التي عرضها على معايير الإسلام ، فاستصفاها وصَفَّـاهـا من غبش الجاهلية ووثنيَّتها وجورها وزيغها عن سبيل الله .

ذلك مثل الطائفة التي قبلت هدى الله وعلم النُّبوة فانتفعت بـه ونَفَعَت ـ عَلِمَت وعلَّمت ـ كما تقبل الأرض الطَّيبـة الغيث ، فتنبت الكلأ والعشب الكثير !..

لقـد واجهـوا طـواغيت عصرهم ، وقـواه الكبرى المتحكمـة

والمهيمنة .. وواجهوا مواريث الأمم السابقة ـ بما فيها من صلاح وفساد ـ بوعي لا غبش فيه ، بطبيعة وتميز وامتياز الرسالة التي يحملون ، وبانتماء ، لا شرك فيه ، إلى هذا الدين ، وبشوق إلى الشهادة في سبيل إقامة الإسلام وتجسيد القرآن ، حياة تسعى وتنمو وتمتد وتتطور على هذه الأرض ، تحقيقاً للخلافة التي أرادها الله لهذا الإنسان في هذا الوجود ..

وإذا كان توالي السنين ، ومعها طوارئ الأمراض والعوارض ، هو مما يصيب الصحة الجسدية بالوهن والعلل ، فإن هذه السنة تنسحب أيضاً على الأنساق الفكرية ، يصيبها توالي السنين والقرون ، والعلل الذاتية والوافدة بالغبش الذي يحجب صفاءها ويفلّ من عزمها ويقلّل من فاعليتها ، فإذا لم يتداركها المجدّدون بالتّجديد والمجاهدون بالجهاد الذي يجسّدها نموذجاً حيّاً معاشاً ، طويت صفحتها الحية ، وتحولت إلى متحف التاريخ !..

ولما كانت خلافة الإنسان عن الله هي إرادة إلهية نافذة ، كانت رعايته ، سبحانه وتعالى ، إحدى ألطافه ونعمه ، سبحانه

وتعالى ، على هذا الإنسان .. فكان تعاقب الرسالات السماوية تجديداً للنَّسق الديني في فكر هذا الإنسان .. وعندما بلغ هذا الإنسان مرحلة الرُّشد ، وشاء الله ختم طور النُّبوة والرِّسالة والوحي بمحمد ﷺ ، وبالقرآن الكريم ، استمرَّ التَّجديد سنّة من سنن الإسلام ، لينفي به المجدِّدون عن هذا الدين طوارئ القرون وعللها ، وأمراض الغلوّ ، إفراطاً وتفريطاً ، فالتَّجديد ، في هذه الرسالة الخاتمة ، هو القائم بمهمة الرسالات المتوالية في تاريخ النُّبوة القديم ، ولذلك كان علماء هذه الأمة ، المجدِّدون لدينها ، مثلهم في هذا الميدان ، كمثل أنبياء بني إسرائيل في التاريخ الديني القديم .. إنهم ورثة الأنبياء .. يجدِّد العدول منهم هذا الدين ، عندما ينفون عنه الزوائد ويعيدون إليه النواقص ، ويكشفون عن طاقاته وإمكاناته لتفعل فعلها في هداية الإنسان .. وصدق رسول الله ﷺ ، إذ يقول : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يُجدِّد لها دينها »[١] !

☆ ☆ ☆

(١) رواه أبو داود .

واليوم .. لا نغالي إذا قلنا إن إجماعاً يكاد أن ينعقد على أن الفكر الإسلامي يعيش في أزمة ، وعلى أن هذه الأزمة الفكرية قد أوقعت أمة هذا الفكر في مأزق حضاري .. فأهل الفكر ـ بتياراتهم المختلفة ـ يسلمون بذلك ، مع اختلافاتهم في تحديد أسباب هذه الأزمة ، وفي تعيين سبل الخروج منها .. وواقع الأمة يشهد على ذلك ، حتى لدى الذين لا يتخذون من الفكر صناعة يتخصصون ويبرعون فيها » ..

لقد تحقَّقت نبوءة الرسول ﷺ ، تلك التي صاغها في حديثه الذي يقول فيه : « بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء »[١] .

بل إن هذه الغربة الحالية ، هي ـ حتى الآن ـ متميزة عن الغربة الأولى ، لأن (الغرباء) الذين حملوا الإسلام في عهده الأول قد امتلكوا ـ على النحو الذي أشرنا إليه ـ المؤهلات التي جعلتهم يواجهون به قوى ذلك التاريخ وطواغيته ومواريثه ، وينتصرون .. (أما غرباء) هذا العصر ، من الذين تحقَّقت

(١) رواه مسلم والتِّرمذي وابن ماجه والدّارمي والإمام أحمد .

فيهم صفات الطائفة التي تقبَّلت الهدي الإلهي والعلم النَّبوي والمنهج الإسلامي ، فعَلمته وعلَّمته ، وانتفعت به ونفعت ، فإنهم من القلَّة العددية ، وتبعثر الجهود والطاقات ، بحيث لا يكاد يدرك الأكثرون لهم فعلاً ولا تأثيراً !..

صحيح أن الله ، سبحانه وتعالى ، قد تعهَّد بحفظ هذا الدِّين ، عندما تعهَّد بحفظ كتابه المبين ﴿ إنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظونَ ﴾ [الحجر : ٩/١٥] .. لكن الأكثرية من أبناء الأمة قد غدا حفظهم لهذا الدِّين أشبه ما يكون بحفظ الأرض الجدباء والصخرية للماء ، حفظ لا يبدِّد التَّركة ، لكنه لا ينتفع بها ، فضلاً عن أن ينفع بها !.. حفظ لا ينبت الكلأ والعشب الكثير .. وإنما هو إمساك للماء ، ماء الغيث ، في انتظار من يتقبَّله ، فينتفع به وينفع ، صنعاً للجديد بالتَّجديد .. ذلك هو حال أهل الجمود على الموروث ، بالنسبة إلى (الغرباء) ، أهل التَّجديد !..

أما الطائفة الثالثة من طوائف هذه الأمة ـ التي أشارت إليها نبوءة الرسول ﷺ .. فهي تلك التي انتزعها طواغيت

العصر - من القوى الكبرى - بالغزو الفكري والاستلاب الحضاري .. لقد انفصلت عن الوعي بالإسلام والانحياز لمنهجه والالتزام برؤيته والجهاد في سبيله ، فغدت ، بالنسبة لتراثه ، كالقيعان « التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ » !.. إنهم يفرّون من الالتزام الإسلامي ، فلم يعودوا يرفعون به رأساً ، ولا يقبلون هدى الله الذي جاء به رسوله ، عليه الصّلاة والسّلام !..

لهذا كان عجزنا أمام طواغيت العصر عجزاً مخجلاً .. فلم ننتصر كما انتصر الأولون .. ولهذا كان فشلنا في الاستفادة بمواريث الآخرين فشلاً ذريعاً ، فلم نستفد منها ، ونتفوق عليها كما صنع الأولون .. إن حفظنا لتراث الإسلام - في أغلبه الأعم - هو حفظ (الأراضي الأجادب) التي لم تضيع الماء ، لكنها لم تنتفع به ، فتلد وتنبت وتبدع الجديد .. وما لم تتغير موازين القوى على خارطة الحياة الفكرية لأُمَّتنا الإسلامية ، فيصبح التأثير الأفعل والأعمق هو لتيار الإحياء الإسلامي والتَّجديد الحضاري ، فستظل غربة الإسلام قائمة حتى في ديار

أمته ، وسيظل عجز هذه الأمة عن تحقيق المقاصد الحقيقية لخلافة الإنسان عن الله : إعمار هذا الكون على النحو الذي تكون فيه كلمة الله هي العليا في هذا العمران .. سيظل هذا العجز عن تحقيق هذه المقاصد قائماً !..

☆ ☆ ☆

ثم .. إن هذه الأزمة الفكرية ، التي قادت وتقود الأمة إلى هذا المأزق الحضاري .. ليست خاصية تنفرد بها أمة الإسلام .. فحتى طواغيت اليوم ، وقواه الكبرى والمهيمنة ، يعانون هم الآخرون من أزمة فكرية ، ومن مأزق حضاري .. كما كان حال أسلافهم الذين واجههم المسلمون الأولون ..

● إننا نعاني من (انعدام) وضوح الرؤية ، ومن فقدان الاتجاه .. وهم يعانون من (قلّة) وضوح الرؤية ، ومن فقدان الاتجاه الصحيح ..

● ونحن نعاني من (الضعف) الذي يجعل كثرتنا غثاء كغثاء السيل ، لا فعل لها ولا تأثير .. وهم يعانون من

(تضخيم) (القوة المتوحشة) ، التي تهدّد (الوجود) بـ (الفناء) !..

● **ونحن نعاني من (فقر الإبداع)** ، لافتقارنا إلى الإحساس بخصوصيّتنا ، ولانعدام الانتماء إلى مشروعنا الحضاري ، الذي يفجّر فينا طاقات الإبداع .. وهم يعانون من (خلل توازن ثمرات الإبداع) ، ففي ميادين القوة والوفرة المادية ، قفزت وتقفز حضارتهم قفزات عملاقة ، على حين أصابها ويصيبها الفقر الشديد في غير هذين الميدانين ، فافتقد إنسانها التوازن الحضاري ، والاتّساق الداخلي ، والاطمئنان الآمل عندما انعدمت في نسقه الفكري حكمة الحياة ، وغاية الوجود ، وإنسانية القوة والوفرة المادّية .. إنه الإبداع الأعرج ، القائم على ساق واحدة ، الذي حقّق لإنسان الحضارة الغربية : قوة الوحوش الكاسرة ، ويشبَع من يأكل في سبعة أمعاء ، مع أقصى درجات القلق والعبثية وانعدام المعنى الإنساني للحياة !..

إنهم يألمون كما نألم .. لكن مع اختلاف الأسباب .. الأمر الذي يجعل من خروج الفكر الإسلامي من أزمته ، وانعتاق

الأمة الإسلامية من مأزقها الحضاري ، الحلّ لمشكلتنا نحن وحدنا وإنما يجعل منه إسهاماً مطلوباً لترشيد الخيارات الحضارية الأخرى ، وخاصة الخيار الغربي .. فالإسلام الناهض المتجدد ، هو المرشح اليوم لممارسة المهمة التي نهض بها عندما ظهر .. مهمة الإحياء والتَّرشيد والتَّجديد حتى في إطار القوى التي ناصبته وتناصبه العداء !.. مهمة الشهود الحضاري الفاعل في (منتدى الحضارات) الإنسانية !..

لذلك ، لا غرابة في أن تتصدر مشكلة (أزمة الفكر الإسلامي) قائمة المشكلات التي تواجه العقل المسلم في هذا العصر الذي نعيش فيه .. ولا غرابة إذا نحن دعونا (أهل الذكر) إلى الاهتمام بها أيما اهتمام ، وإلى إدارة أعمق وأوسع الحوارات حول ما لها وفيها من أسباب وأعراض وسمات .

وإذا كان لهذه الصفحات أن تلتقط من قضايا هذا المبحث ـ مبحث أزمة الفكر الإسلامي الحديث ـ نماذج من المشكلات المثارة في المباحث التي تعرض لهذه القضية .. فإن هناك ـ على

سبيل المثال ـ قضايا ومشكلات تواجه العقل السليم ، ويعاني منها ، عندما يطرق مباحث هذا الميدان .. هناك مثلاً :

١ ـ قضية : العقل ما هو ؟.. وما الموقف منه ؟.. وضرورة تحريره .. لكن ، من ماذا ؟!..

٢ ـ وقضية : علاقة الجديد والتَّجديد بالتراث ؟..

٣ ـ وقضية : الهوية الثقافية .. وعلاقتها بكل من الأصالة والمعاصرة ؟..

٤ ـ وقضية : الموقف من (الآخر الحضاري) ـ والحضارة الغربية على وجه الخصوص ؟..

٥ ـ وقضية : (انقسام العقل المسلم) حول مرجعية مشروعه الحضاري ؟..

تلك نماذج لأبرز قضايا الفكر الإسلامي الحديث .. والتي تطمح هذه الصفحات أن تلقي عليها بعض الأضواء .

- ١ -

العَقْل .. وتَحْريرُه

ماذا يعني ؟.. وماهِيَّة التَّحرير ؟؟

إن أولى القضايا المشكلة ، في أزمة الفكر الإسلامي الحديث ، هي قضية (العقل) .. والموقف منه كأداة للنظر والبرهنة والاستدلال ... والموقف من الشعارات المطروحة حول ضرورة تحرير العقل المسلم من القيود التي تكبّله .. ما هي هذه القيود ؟.. وهل ما يعدّه غيرنا قيوداً على النظر العقلي هي كذلك في النظرة الإسلامية ؟..

إن العقل والعقلانية ، والنَّزعة العقلية ـ في المنظور الإسلامي ـ ليس جوهراً مستقلاًّ ، ومناقضاً لغيره من سبل النظر وتحصيل المعارف وأدوات الإدراك . فإذا كان المنهج العقلي ، والفكر ذو النزعة العمَلية ، في المصطلحات السائدة

بالفكر الغربي يعني التميز والاستقلال ، بل والمقابلة والتناقض مع المناهج والنزعات الوجدانية والحدسية والنقلية ، فليس كذلك الحال في منظور الرؤية الإسلامية لعلاقة العقل والعقلانية بمناهج النظر والإدراك الأخرى ..

فالعقل - في مصطلح العربية ومفهوم الإسلام - ليس (عضواً) ، وإنما هو (فعل التَّعقل) .. وبه وبالقلب والنُّهَى واللُّب ، وبالنَّظر والتَّدبر والتَّفكر والفقه كان التعبير القرآني عن سبيل هذا المنهج من مناهج النظر وعن مضمون هذا المصطلح .. وفعل التَّعقل إنما يتمُّ من إنسان يمتلك سبلاً أخرى للنظر والإدراك .. وموضوع النظر والإدراك ، وعوالمها من الكثرة والتَّعقد إلى الحدّ الذي يستحيل تحصيل معارفها ، أو الممكن والمتاح من معارفها ، بسبيل واحد من سبل النظر والإدراك هذه .. فالقصور شديد في محصول كل سبيل إذا هو انفرد وانقطعت علائقه بالسُّبل الأخرى ، والأفق أوسع والمحصول أغنى إذا تعاونت سبل النظر والإدراك في تحصيل المعرفة من مصادرها وعوالمها المتعددة المختلفة ..

كذلك ، فإن النقل ـ وهو الوحي ـ في المنظور الإسلامي ، ليس مقابلاً للعقل والعقلانية ، بل إنه ثمرة للعقلانيـة .. فحجيّـة النقل مترتِّبة على حجيّة الرسول الـذي بَلَّغـه .. وحجيّـة الرسول المبلِّغ مترتِّبـة على الإيمـان بـالله الـذي أرسـل الرسـول بـالـوحي المنقول .. وسبيل هذا الإيمان هو النظر العقلي في كتـاب الكون المصنـوع على نحـو لا نهـائي من الإبـداع والإحكام في الصنعـة والتقدير والرعاية والتـدبير .. فكأنمـا كان التَّصـديق بهـذا النقل ـ كتـاب الـوحي ـ هـو ثمرة عقليـة للنظر في كتـاب الكـون ، استدلالاً بالمصنوع البديع على الصانع المبدع ، الأمر الـذي جعل ويجعل التَّزامـل حتماً والاشتراك ضرورة بين (كتـاب الـوحي) و (كتـاب الكـون) وبين العقـل ، كأداة للنظر فيهما معـاً ، متعاوناً في ذلك ومستعيناً بكل أدوات النظر الأخرى ..

ذلك هو العقل ، وتلك هي العقلانية ، والنزعـة العقليـة في منهج الإسلام .. فليس هناك تقابل بين العقل والنقل ، ولا بين الوحي والكون .. وليس هنـاك استقلال للنظر العقلي عن غيره من سبل النظر والإدراك .. وإنما تتفاوت المناهج وأصحـابهـا في

المقام والأهمية التي تعطي لكل سبيل من سبل النظر في عملية البحث عن الحقيقة ، وهو تفاوت يجب أن تحكمه طبيعة المبحث وميدان النظر وحقل التفكير .

وإذا كان هذا هو مقام العقل ومكانته بين سبل النظر في الوحي والدين .. فإن الدين الإسلامي غير مقطوع الصلة بالعقلانية ، بل إنه موضوع من موضوعات المباحث العقلية وميدان من ميادين النزعة العقلية .. لأنه حكم على العقل فيما لا يستقلّ العقل بإدراكه من عوالم الغيب والسمعيات ، وميادين الذوق والوجدانيات .. إنه ميزان للعقل ، يميز صحيحه من فاسده الذي شطَّ به الغرور ، يكونان معاً ـ ومعهما كتاب الكون : المعالم المتحدة التي أقامها الله ، سبحانه وتعالى ، لهداية الإنسان إلى سبيل الرّشاد .

ومن هنا ، فإن (تحرير العقل) المسلم ـ كقضية من قضايا أزمة الفكر الإسلامي الحديث ـ يجب أن تفهم على أنها تحريره من الجمود والتقليد الأعمى .. وتحريره من الغرور .. وتحريره من الهوى .. تحريره من الجمود والتقليد الأعمى للسلف ، سواء

أكان هذا السَّلف هو سلفنا نحن ، أم سلف الحضارة الغربية .. فالجمود النصوصي آفة ، سواء أكانت هذه النصوص من موروثنا نحن أم مستوردة عن (الآخر الحضاري) !..

والغرور العقلاني ، الذي يزعم أهله قدرة العقل على الاستقلال بإدراك أي شيء ، إلى الحدّ الذي يحكمون فيه (بالاستحالة) على كل ما لا تدركه عقولهم .. هو موقف أشبه ما يكون بعبث الطفولة ـ مع افتقاره إلى براءة الأطفال ؟!..

فإذا كان المنهج العلمي في التفكير ، والسبيل الموضوعي لاكتشاف الحقيقة وتحصيل المعرفة والوعي بالوجود ، وكذلك الأسلوب الدقيق لوصف المكتشفات والتعبير عنها .. إذا كان ذلك جميعه رهناً برؤية الظاهرة موضوع الدرس من كل جوانبها ، والرَّبط الحيّ بين كلّ سماتها وقسماتها وعوالمها وأسبابها وتأثيراتها وظواهرها ومتغيراتها .. فإن المنهج الإسلامي ، الذي لا يقف في العالم ، عند (عالم الشهادة) وحده .. وفي الإنسان عند (الحاجات الاقتصادية) وحدها .. وفي المجتمع عند (العوامل المادية) أو (الفكرية) دون غيرها .. وفي سُبل

الوعي والمعرفة عند (الحواس) دون سواها .. إن هذا المنهج الإسلامي الجامع المحيط ، هو المنهج العلمي الوحيد .. وإن سبيله هو السبيل الموضوعي لاكتشاف الحقيقة ، وإن أسلوبه هذا هو الأسلوب الأدق في وصفها ..

وفي ضوء هذه الحقيقة ، نتساءل ـ التساؤل الإنكاري والاستنكاري ! ـ لماذا يقف (الجدل) فقط عند (الفكرة) وحدها كما هو حاله عند (هيجل ـ Hegel) (١٧٧٠ ـ ١٨٣١ م) ؟؟.. ولماذا يقف هذا (الجدل) عند (المادة) وحدها ـ كما هو مذهب (ماركس ـ MARX) (١٨١٧ ـ ١٨٨٣ م) ، و (أنجلز ـ Engels) (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥ م) ؟؟.. لماذا لا يكون (الجدل) والعلاقة في الظاهرة المدروسة ـ فكرية أو طبيعية أو إنسانية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية ـ شاملاً وجامعاً ومحيطاً بكل الجوانب والسمات والقسمات والمؤثرات ، مع إعطاء كل عامل وزنه وحقّه وقدره في الفعل والانفعال ؟؟!..

إن الذي لا يصدق بما هو أبعد مما تدركه التجربة الحسية والعقل المحدود القدرات ، فينفي العلمية عن كل ما لا يخضع للتجريب والاختبار الحي ، هو أشبه ما يكون بمن يكذب بوجود ما لا تدركه عينه المجردة ، قبل اختراع العقل (للميكروسكوب) . و (التيلسكوب) وأمثالهما من وسائل (التّكبير) و (التّقريب) !.. هو أشبه ما يكون بمن يكذب بما لا يحيطه عقله ، حتى ولو أحاطت به عقول الآخرين !.. هو أشبه بمن يختزل الحقيقة إلى الحجم الذي يستوعبه ويتّسع إدراكه المحدود !.. وهو موقف قد ينقضه تطوره هو ، ويغيّره نمو إدراكه هو ، وذلك فضلاً عن إدراك الآخرين ، وعن الإدراك بالمناهج التي تلتزم ـ بحق ـ الرؤية والإدراك للأشياء والظواهر من كافة الجوانب ، ومن جميع الوجوه ، وفي كل الأبعاد ..

إن (ماركس) ، الذي لم يرَ من القوى المحرّكة للتّطور والصانعة للتاريخ ، والفاعلة في أدوات الإنتاج ، والحاسمة في علاقات الإنتاج ، سوى القوى المادية ـ وفي مقدمتها الاقتصاد ـ فأرجع إليها جميع ما عداها ـ إن ماركس هذا عندما اطّلع على

طرف من تاريخ التَّطور الاجتماعي للشرق الإسلامي ، وقرأ ـ بمكتبة المتحف البريطاني ـ أحد كتب (الأموال) الإسلامية ، بدا له جديد لم يكن في نطاق إدراكه عندما وقف بعوامل التطور وأدوات الإنتاج وعلاقاته ، وبالجدل عند المادة وحدها .. فكتب ـ في (مراسلاته إلى أنجلز) ينبِّه على أهمية دراسة تراث الإسلام ، لاكتشاف وتحديد التَّميز الذي فيه .. وإذا كانت مشاغله ومنيته قد حالت بينه وبين تحقيق عزمه على دراسة التراث الاقتصادي والاجتماعي للإسلام ، فإن الذين أتوا من بعده قد سلموا بهذا التَّميز ، لكن طغيان النزعة المادية قد منعهم من تسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية .. فتحدثوا عن (نمط الإنتاج الآسيوي) ـ ولم يقولوا (الإسلامي) ، ثم إنهم ـ وهذا هو الأهم ـ نكصوا على أعقابهم ، فلم يستخلصوا من هذا النمط المتميز في الإنتاج منهجاً جديداً ينقص الدوران في منهجهم الفكري حول المادة ، كالعامل الأول والأوحد في الفعل والتأثير .. حتى جاء واحد من فلاسفتهم المعاصرين ـ روجيه جارودي ـ فكتب ـ قبل اهتدائه إلى الإسلام ـ يقول : إن

الماركسية نظرية أوربية ، لأن أصولها ومكوناتها أوربية غربية :

١ ـ الفلسفة الكلاسيكية الألمانية ..
٢ ـ والاشتراكية الفرنسية ..
٣ ـ والاقتصاد السياسي الإنجليزي ..

ولو أن الظروف قد أتاحت لماركس تحقيق العزم الذي حَدَّث (إنجلز) عنه في (المراسلات) ، فاستكمل دراسة تراث الإسلام ، لأصبح للماركسية أصل رابع ، غير أوربي ، ولخرجت من إطار النظرية (الإقليمية) ، ولتبدَّل حالها بهذه الإضافة الإسلامية .. وذلك بدلاً من أن تظلَّ ـ كما حدث لها ـ (إقليمية) ، بل و (ريفية)[1] ؟!..

ذلك شاهد واحد على ما في غرور العقل من شطط وخطل

(١) انظر محاضرة جارودي عن (الإسلام والاشتراكية) ـ مجلة (الطليعة) المصرية ـ عدد يناير ١٩٧٥ م ، ص ١٤٩ ، ١٥٣ . وانظر ـ كذلك ـ جارودي (ماركسية القرن العشرين) ص ٥٩ ، ٧٤ ، ترجمة : نزيه الحكيم . طبعة بيروت ١٩٦٧ م .

وخطر .. وبرهان على أن تحرير العقل ـ كقضية من قضايا أزمة الفكر الإسلامي الحديث ـ يجب أن يعني تحريره من جمود التقليد الأعمى ، ومن الغرور ، ومن الهوى .. جميعاً .. فهذا هو ـ بحق ـ جوهر التحرير ، وكامل التحرير !.. ورحم الله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م) عندما تحدَّث عن هذه المهمة ـ باعتبارها أولى المهام التي جاهد في سبيل إنجازها ـ فقال : « لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وإنه على هذا الوجه يعدُّ صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل ، كل هذا أعده أمراً واحداً[(١)] ..

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ٣١٨/٢ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

هـذا عن قضيـة : العقـل .. ومكانتـه من سبـل النظر الأخرى .. وعن تحريره ، لينهض بـدوره في إخراج الأمـة من مأزقها الحضاري ، بـإخراج فكرهـا من الأزمـة التي تمسـك منـه بالخناق !..

- ٢ -

علاقة الجديد والتجديد بالتراث

ونحن نعالج مشكلات أزمة الفكر الإسلامي الحديث ، علينا أن ندرك أن للإسلام في التَّجديد ، منهجاً متميِّزاً .. (فالتَّجديد) غير (النَّسخ) .. فهو و (الحداثة) - بالمعنى الغربي - نقيضان . إن من موروثنا الفكري ما هو وحي إلهي ، ووضع ربّاني ، مَثَّل ويمثِّل في حياة هذه الأمة : الصانع الأول لوجودها الحضاري والقومي والفكري .. هو صانع وحدتها ، ومُقْتضي دولتها ، ومُعين حدود وطنها ، وخالق مزاج هُويّتها ، والمكون الأعظم لبصمتها الحضارية التي تتميز بها وتمتاز في (منتدى حضارات) الأمم والشعوب ..

وهذا القطاع من موروثنا الفكري ثابت من الثوابت .. ونسخه إنما يعني نسخ تميُّز وامتياز هذه الأمة .. إنه رحم نسبها الشرعي ، الذي يمنع عنها وصمة عار (التابع - اللقيط !) ..

وإذا كان (النَّسخ) أو (التَّجاوز) غير وارد مع هذا القطاع من الموروث ـ الذي تمثَّل ويتمثَّل في البلاغ القرآني وفي البيان النَّبوي لهذا البلاغ ـ فإن للتَّجديد معه صلة وسبباً ونسباً ، تحتاج إلى البيان والتَّحديد .. فالتَّجديد في هذه الثوابت وارد ، لا لأن حديث رسول الله ﷺ قد نصَّ على « تجديد الدِّين » ـ وليس فقط تجديد فكرنا (الديني) ـ وإنما لأن هذا التَّجديد هو السبيل لوفاء هذا (الثابت) بدوره الذي أُنيط به في حياة هذه الأمة .. فحتى يظل هذا البلاغ القرآني وبيانه النَّبوي ثابتاً في حياة هذه الأمة ، لا بد وأن يبقى (فاعلاً) في هذه الحياة ـ وإلا كان ثباته (ثباتاً متحفياً) !.. كما هو الحال مع (المومياوات) !.. وحتى نضمن فعل هذا (الثابت) في الحياة المتجددة ، لا بدَّ من إعمال سنّة التَّجديد لتجلية الوجه الحقيقي لمبادئه وعقائده ومناهجه وأحكامه من زوائد البدع ونواقصها ، ومن غبار الخرافة وركام الشعوذة وانحرافات التَّصورات ، التي تعلو وجهه الحقيقي مع كرِّ السنين وتوالي الحقب والقرون .. فالعودة إلى المنابع الجوهرية والنَّقية

في هذا (الثابت) وتجلية وجهه الحقيقي لتعود له قدرات الفعل والتأثير ، هي (سلفية) و (تجديد) في الوقت ذاته ـ وهذا هو المعنى الطيب الوحيد لمصطلح (السلفية) في منظور الإسلام !.. إنها العودة للمنبع ، لا مخاصمة للحاضر والمستقبل ، وإنما لاستصحاب المنبع كي نعقد قرانه على الواقع الجديد !..

ثم .. إن نصوص هذا (الثابت) ـ الذي اكتمل بتمام الوحي ـ هي نصوص متناهية ، بينما وقائع الحياة وواقعها رحم ولود بالجديد الذي لا يعرف التَّناهي ولا الحدود .. وهنا يتمثل التجديد في صورة (الفروع) التي تحمل روح (الثابت) وأصوله ومزاجه العقدي والحضاري ، كي يستظلَّ بها هذا الواقع الجديد .. فالجديد الذي لا يستمدّ شرعيته وخصوصيته من (الثابت) ، لا يعدُّ تجديداً ، لأنه يقطع صلات الواقع الجديد بالأصول الثابتة ، إنه (نسخ) للثوابت ، وليس (تجديداً) لها !.. وكذلك يفعل (الجمود) الذي لا يمدّ (فروعاً) جديدة لتظلل الواقع الجديد ، لأنه يؤدي إلى النتيجة ذاتها ، عندما ينسخ (الواقع) عن (الثابت الفكري) !.. فكلاهما ـ الجمود

والاستلاب الحضاري ـ وجهان كالحان لعملة واحدة ، هي عملة (السلفية المعَطِّلَة) ـ إذا جاز التعبير ـ فهي تعطل عمل (الثابت) الموروث في الواقع المعاصر ، إما بالانسحاب من العصر إلى الماضي ، وإما باستعارة (ثابت حضاري غريب) تفرضه على الواقع الذي عطلت (ثابتنا) عن العمل فيه !.. فهو انسحاب من (عصرنا) نحن ، وإن لم يكن انسحاباً من (العصر) بإطلاق ؟!..

تلك هي حدود (القداسة) في الموروث الفكري .. وحدود التجديد فيه .. أما ذلك المورث المتنوع والغني ، والذي يمثِّل فهم السَّلف للبلاغ القرآني ولبيانه النَّبوي ، والذي أبدعه أسلافنا في علوم الحضارة ، ثقافة ومدنية ، فإنه بالنسبة لنا : (كنز ـ مرشد) ، علينا أن نتعامل معه بعقل معاصر ، ونظرة ناقدة ، وفكر مستنير ، لنسترشد ونهتدي بما فيه من علم نافع ما زال صالح العطاء ـ وهو كثير ، وكثير جدّاً .. ولننعش به ذاكرة الأمة ، ونشحن به كبرياءها المشروع ، اللازم لها وهي تواجه عاتي التحديات ، ولنوفر جهوداً كثيرة تلزمنا إذا نحن أهملناه

وبدأنا من حيث بدأ الأسلاف .. وهو صنيع السفهاء الذين يرثون موروثاً غنيّاً لا يدركون قيمة وعظمة ما فيه !.. وأيضاً لنحتفظ لهذه الأمة بخيوط تواصلها الحضاري متينة غير رثّة ولا واهية ، ففي ذلك ضمان استقامتها على طريقها في غابة الصراع الحضاري القائم الآن في عالمنا على قدم وساق ..

أما ما تجاوزه التَّطور من إبداع السَّلف ، فإننا نتجاوزه ، معتزّين به ، وواضعين إياه في متحف التاريخ الفكري ، مادة للعظة والعبرة ، ووثيقة في دراسة هذا التاريخ !..

ذلك هو مفهوم .. وتلك هي حدود (الاستلهام) و (التَّجاوز) لما ورثناه من إبداع أسلافنا في ميادين الفكر والممارسات .

إننا مدعوّون إلى (حفظ) كل تراثنا ، حفاظاً على ذاكرة الأمة ، واستفادة بخبرات السلف ، على النحو الذي يضيف أعمارهم إلى أعمارنا ؟!.. ومدعوون إلى أن (نُحْيِي) من هذا التراث في واقعنا المعاصر ما لديه صلاح وصلاحية كي يزامل

إبداعنا الجديد في تحقيق المصالح الشرعية المعتبرة والعصرية لأمة تزاحم الأعداء ، وتواجه التَّحديات ، وترنو إلى مستقبل أكثر إشراقاً من كثير من صفحات تاريخها الطويل !..

- ٣ -

الهُويَّة الثقافية
بين (الأصالة) و (الْمُعاصرة)

في بداية الحديث عن قضية (الهُوِيَّة الثقافية) وعلاقتها بكلٍّ من (الأصالة) و (المعاصرة) .. لا بدَّ من تحديد المعنى العلمي للمصطلحات ..

● **فالهُوِيَّة** : - في عرف حضارتنا العربية الإسلامية - مأخوذة من : (هُوَ .. هُوَ) .. بمعنى : جوهر الشيء .. وحقيقته .. فهوية الإنسان .. أو الثقافة .. أو الحضارة .. هي : جوهرها وحقيقتها .. ولما كان في كل شيء من الأشياء - إنساناً أو ثقافة أو حضارة .. (الثوابت) و (المتغيرات) .. فإن هوية الشيء هي (ثوابته) ، التي (تتجدد) ولا (تتغير)، تتجلى وتفصح عن ذاتها ، دون أن تخلي مكانها

لنقيضها ، طالما بقيت الذات على قيد الحياة !.. إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان ، تتجدَّد فاعليتها ، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الغبار وعوامل الطمس والحجب ، دون أن تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات !..

● ● ●

● **والثقافة** : هي كل ما يسهم في عمران النفس وتهذيبها .. فالتَّثقيف : من معانيه : التَّهذيب .. وإذا كانت المدنية هي تهذيب الواقع بالأشياء ، فإن الثقافة هي تهذيب النفس الإنسانية بالأفكار .. وكلاهما عمران .. عمران للواقع وعمران للنفس .. فهما شقّا (الحضارة) ـ التي هي (العمران) !..

وتعلّق الثقافة واختصاصها بعمران النفس الإنسانية وتهذيبها ، هو الذي يعطي لثقافات الحضارات المتميزة تمايزاً .. منبعه ومنطلقه ودواعيه : تميُّز النفس الإنسانية ، في كل حضارة من الحضارات ، بتميُّز المكونات والمواريث والعقائد والفلسفات التي تمايز بين (البصمات) الثقافية في أهم هذه الحضارات !..

فإذا ما انتقلنا إلى صلب الموضوع ، **وتساءلنا عن هوية ثقافة أمتنا** ، التي هي جوهر هذه الثقافة ، وحقيقتها ، والأصالة المميزة لها .. فإننا نستطيع أن نقول : إن **الإسلام** ، منذ أن تدينت به أغلبية هذه الأمة قد أصبح هو الهوية الممثلة لأصالة ثقافة هذه الأمة .. فهو الذي طبع ويطبع وصبغ ويصبغ ثقافتها بطابعه وصبغته .. فعاداتنا وتقاليدنا ، وآدابها وفنونها ، وسائر علومها الإنسانية ـ في السياسة والاقتصاد والاجتماع ـ وفلسفة علومها الطبيعية والتجريبية .. ونظرتها للكون .. وللذات .. وللآخر .. وتصوراتها لمكانة الإنسان في هذا الكون .. من أين أتى ؟.. وإلى أين ينتهي ؟.. وحكمة هذا الوجود وغايته ؟.. كل ذلك ـ وما ماثله ـ قد انطبع بطابع الإسلام ، واصطبغ بصبغته .. حتى لنستطيع أن نقول ، ونحن مطمئنون كل الاطمئنان ، إن ثقافتنا ثقافة إسلامية .. وإن معيار الدخول والخروج في ميدان ثقافتنا ، والقبول والرفض فيها ، هو المعيار الإسلامي ..

وإذا كانت **تيارات الأصالة الفكرية** ، في واقعنا المعاصر ،

إنما تتمثل أساساً ـ بل وتكاد تنحصر ـ في :

أ ـ **تيار إسلامي** .. تنتمي إلى فصائله المتعددة ، أغلبية الأمة .

ب ـ **وتيار قومي** .. هو ـ في أغلب فصائله ـ امتداد لأصالة الأمة اللغوية والتاريخية ..

وإذا كان الإيمان بأن الإسلام هو ثقافة أمتنا وأصالتها ومعيار تميُّز هويتها ـ ومن ثم معاصرتها ـ عن أمثالها في ثقافات أمم الحضارات الأخرى .. إذا كان ذلك مُسَلَّمَةً من المسلَّمات الفكرية لدى المسلمين والإسلاميين من أبناء أمتنا .. فإنه ، أيضاً ، من المسلَّمات التي يدعو إليها أبرز فصائل التيار القومي في واقعنا العربي والإسلامي ..

وإذا كانت هذه الصفحات لا تتسع لاستقصاء الشواهد على أن هذه هي حقيقة موقف التيار القومي من (إسلامية ثقافتنا) .. فإننا نكتفي ، للدلالة على هذه الحقيقة ، بكلمات لواحد من المفكرين والساسة العرب .. هو أبرز المنظِّرين

المعاصرين للتيار القومي ولحركة القومية العربية .. وهو أبرز مسيحي عربي برز في الميدان السياسي للتيار القومي العربي المعاصر .. فكلماته عن (**إسلامية ثقافة أمتنا**) هي التعبير عن التقاء التيار القومي ، مسيحييه ومسلميه ، مع التيار الإسلامي حول هذه الحقيقة من حقائق هويتنا وأصالتنا الثقافية ..

يقول المفكّر القومي - المسيحي الأرثوذكسي - ميشيل عفلق (١٩١٠ ـ ١٩٨٩ م) :

« لا يوجد عربي غير مسلم !.. فالإسلام هو تاريخنا ، وهو بطولاتنا ، وهو لغتنا ، وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون .. إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم .. وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم ، إذا كان هذا العربي صادق العروبة ، وإذا كان متجرّداً من الأهواء ومتجرّداً من المصالح الذاتية .. وإن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم سوف يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبّوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في

عروبتهم .. ولئن كان عجبي شديداً للمسلم الذي لا يحب العرب ، فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام ؟!.. »[١] .

إذن .. فهويتنا الثقافية ، الممثلة لأصالتنا الثقافية .. هوية إسلامية .. وأصالة إسلامية .. على هذه الحقيقة تجتمع تيارات الأصالة الفكرية والسياسية في بلادنا ـ إسلامية وقومية ـ بلسان أبرز منظريها ، مسلمين ومسيحيين !..

☆ ☆ ☆

لكن ... ما هي السمات والقسمات الرئيسية التي ميَّزت ثقافتنا الإسلامية ، في طور أصالتها ، عن غيرها من ثقافات أمم الحضارات الأخرى .. والتي يجب أن تميِّزها في طور معاصرتها الراهن ، وفي المستقبل كذلك ، عن الثقافات الأخرى غير الإسلامية ؟؟..

بالطبع ، فإن الإطار المحدد والحيِّز المحدود لهذه الصفحات

---

(١) ميشيل عفلق (في سبيل البعث ـ الكتابات السياسية الكاملة) ٣/٣٣ ، ٢٦٩ ، ٥/٦٨ طبعة بغداد ـ دار الحرية للطباعة ـ ١٩٨٧ ، ١٩٨٨ م ..

لا يسمح باستقصاء هذه القسمات الثوابت ، المكونة لهوية ثقافتنا ، والتي تمثّل (معايير إسلاميتها) .. ولذلك ، فإننا سنختار سمة رئيسة من سمات هذه (الإسلامية الثقافية) هي : سمة **(الوسطية الإسلامية)** .. ثم نضرب لها وعليها ـ في إيجاز شديد ـ بعض الأمثال التي توضح ماذا تعنيه الوسطية الإسلامية في تميُّز أصالتنا ومعاصرتنا الثقافية عن ثقافات أمم الحضارات الأخرى ..

إن الوسطية ، في المنظور القرآني ، هي صفة رئيسة وجامعة للأمم الإسلامية .. بل إنها إرادة الله لهذه الأمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣/٢] .

وإذا كانت الوسطية تعني رفض الانحياز إلى طرف ضد طرف ، وقطب من أقطاب الظاهرة دون القطب الآخر .. فإنها ـ في المفهوم الإسلامي ـ ليست التَّوسط المعزول عن الطَّرفَيْن والقطبَيْن والمغاير لهما تمام المغايرة ، إنها موقف جديد ، وثالث ، لكنه لا يغاير قطبي الظاهرة المدروسة ، وإنما

يجمع ـ بالنظرة الشاملة ـ كل ما يمكن جمعه ، ويؤلف كل ما يمكن تأليفه من قطبي الظاهرة المدروسة .. إنها ليست نقطة رياضية ثابتة تتوسط قطبي الظاهرة المدروسة ، وإنما هي موقف جديد يتألف من عناصر الحق والعدل في القطبين معاً .. إنها العدل والتوازن بين القطبين ، وليست الانحياز لواحد منهما ولا المغايرة التامة لهما !.. إنها الحق بين باطلين .. والعدل بين ظلمين .. والاعتدال والتوازن بين تطرُّفين وغُلُوَّين !..

ذلك هو معناها ، الذي يحدّده الحديث النَّبوي الشريف : « الوسط : العدل . ﴿ جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ »[1] .. فالكرم : توازن ، وعدل بين الشّح وبين الإسراف والتَّبذير .. وفيه من تدبير الشحيح ومن عطاء المسرف القدر الذي يمكن جمعه وتأليفه !.. والشجاعة : وسط بين الجبن وبين التَّهور .. وفيها من تأنِّي الجبان وحساباته ومن إقدام المتهور القدر الذي يمكن جمعه وتأليفه !.

(١) [البقرة : ١٤٣/٢] .

وإذا نحن أردنا أن نضرب بعض الأمثال على انطباع ثقافتنا الإسلامية ـ بل وعقل الأمة ووجدانها ـ بهذه الوسطية الإسلامية ، ومن ثم تميّز حضارتها بها .. فإن من الأمثال على ذلك :

● **موازنة ثقافتنا وحضارتنا بين (العقل) وبين (النّقل)** .. فهي لا تنحاز لواحد منهما دون الآخر ، ولا تقف بينهما وبمعزل عن كليهما .. وإنما هي تجمع وتؤلف بين ما يمكن جمعه وتأليفه من براهينهما .. تؤاخي بين (الحكمة) وبين (الشريعة) باكتشاف ما بينهما من الاتّصال .. وتقرأ (النقل) بـ (العقل) .. وتحكم غرور (العقل) فيما لا يستقل بإدراكه ، بالأدلة (النقلية) التي جاءت من صاحب العلم المحيط والكلّي ، عالم الغيب والشهادة ، سبحانه وتعالى !..

● **وهي توازن ، بهذه (الوسطية الجامعة) ، بين مصدَرَي المعرفة : (الوحي) ـ وعلومه الشرعية ـ و (الوجود) ـ وعلومه الطبيعية ـ** فلا تعتمد (الوحي) وحده ، دون (الوجود) ، وأيضاً لا تصنع العكس .. وكذلك لا تقف بينهما

وبمعزل عنهما منحازة (للذوق) و (الحدس) و (العرفان الغنوصي[١] الباطني) .. وإنما هي ترجع إلى (كتاب الوحي المقروء) ـ القرآن الكريم ـ و (كتاب الكون المنظور) ـ الطبيعة ـ حتى لقد استخدمت حقائق علوم الطبيعة أدلة على إثبات وجود الله ـ عندما استدلّت بالمصنوع على الصانع ـ واستخدمت آيات الله وسننه سبلاً لفهم الطبيعة وتصور ما وراءها !..

● **وهي قد صنعت ذلك في فلسفتها حول (مكانة الإنسان في هذا الوجود)** .. فلم تؤله الإنسان ، معتبرة إياه سيد هذا الوجود .. وكذلك لم (تهمّش) دوره ، أو تحقّر من مكانته ، فتعتبره (الحقير) الذي لا سبيل لخلاصه إلا بالفناء في الغير أو في المطلق .. ولم تقف أيضاً ، بين هذين الموقفين .. وإنما جمعت ـ بالوسطية ـ ما يمكن جمعه وتأليفه منهما .. فرأت

(١) الغنوصي ـ نسبة إلى الغنوصية ، وإلى غنوصيص ـ أي (المعرفة) نزعة فلسفية ودينية باطنية ، قائمة على أن المعرفة هي طريق الخلاص للإنسان ، وليس الإيمان الديني ، سواء أكان مصدره العقل أو النقل أو هما معاً .

الإنسان سيِّداً في الكون وليس سيِّد الكون ، لأنه (خليفة) عن سيِّد الكون !..

● **وانطلاقاً من هذه الوسطية الإسلامية في تصور (مكانة الإنسان في هذا الوجود) كانت الوسطية الإسلامية في (الحرية الإنسانية)** .. فالإنسان ليس (الْمُجْبَر) الذي لا حول له ولا طول .. وليس (الحرّ) ، دون حدود أو قيود .. هو حرّ في إطار قدرته واستطاعته ، وفيما هو مقدور له ، ومفوض بإزاء الخيارات التي ليست من صنعه .. وهو ـ كخليفة عن الله ـ ملتزم ومقيَّد بشريعة الله .. هو حرّ في إطار (عقد الاستخلاف والإنابة والتّوكيل) .. وشوراه ـ الفردية والاجتماعية ـ في الأسرة والدولة ـ وهي مشاركته الحرة ـ محكومة بضوابط (الحلال والحرام) الدينية ..

● **و (دولته) ، ليست (الدولة الدينية) ، التي تتقي كون الأمة (مصدر السلطات) .. وليست (الدولة العلمانية)** ، التي تبيح لسلطات الأمة تجاوز (عقد الاستخلاف) بإباحة الحرام وتحريم الحلال !..

● **ونظامه الاجتماعي ، هو الذي يتوسّط بين (النظام الطَّبقي) ، الذي يجعل الطبقة ـ برجوازية كانت أو البروليتاريا ـ هي حاملة الرسالة ، رسالة التَّقدم والعمران ، والساعية إلى نفي الآخر ، والانفراد بالسلطات والثمرات .. وكذلك ، ليس هو النظام الاجتماعي الذي ينكر التَّمايز الطَّبقي في المجتمع** .. وإنما هو النظام الذي يتوسط بين هذين النَّموذجين ، جامعاً في نموذجه ما يمكن جمعه وتأليفه منهما .. فالإسلام دين الجماعة .. والمسؤولية فيه فردية ـ في فروض العين ـ واجتماعية ـ في فروض الكفاية ـ ، والتَّمايز الطَّبقي في مجتمعه حقيقة تمثِّل الفطرة الإنسانية في تفاوت القدرات والملكات والاحتياجات .. والعلاقة بين هذه الطبقات لا بد وأن يحكمها : التوازن ـ أي العدل ـ فكل طبقة تعتمد على الأخرى .. فهي علاقة (الارتفاق) و (التَّسخير) ـ الشامل لكل ظواهر الطبيعة وقواها ـ وليس علاقة (السُّخرة) أو (الظلم والاستغلال) ..

وإذا اختلَّ ميزان العدل بين الطبقات ، فإن الوسطية

الإسلامية ترفض (الاستسلام) لهذا الظلم .. وأيضاً ترفض (الصراع) الذي يطمح به طرف لنفي الطرف الآخر ، والانفراد بالسلطات والثمرات .. ترفض (الاستسلام) و (الصراع) كليهما ، وتقدم (الدفع الاجتماعي) ، الذي هو (حراك اجتماعي) يبتغي تصحيح العلاقة الاجتماعية بين فرقاء متعدّدين ، وإعادة هذه العلاقة إلى لحظة (العدل ـ التوازن) .. فهدف (الدفع) تغيير الواقع ، وليس نفي الآخر الاجتماعي ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فُصّلت : ٤١/٣٤] .

● **ولقد ذهبت ثقافتنا ـ ومن ثم حضارتنا ـ هذا المذهب ـ في (الوسطية الجامعة) ـ حيال (نظرتها إلى الإنسانية) .. فكانت (التّعددية ـ في إطار الوحدة) هي زاوية رؤيتها للآخرين ..**

فدين الله واحد ، أزلاً وأبداً .. وشرائعه متعددة بتعدُّد أمم الرسالات السماوية ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ،

ولو شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً .. ﴾ [المائدة : ٥/٤٨] .. فهنا تعدُّدية في (الشرائع) ، في إطار وحدة (الدِّين) ..

والإنسانية واحدة ، واختلافها وتمايزها إلى أمم وشعوب وحضارات ، سنّة من سنن خالقها وآية من آياته وقانون من قوانين الوجود ﴿ يا أيُّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِن ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفوا ، إنَّ أكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أتْقاكُمْ ، إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ [الحجرات : ٤٩/١٣] ، ﴿ ومِن آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ واخْتِلافُ ألْسِنَتِكُمْ وألْوانِكُمْ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ للعالِمينَ ﴾ [الرُّوم : ٣٠/٢٢] .

فالواحدية ، في الشريعة .. أو القومية .. أو الحضارة ، مرفوضة إسلامياً .. والتَّعدُّدية هي الفلسفة التي يؤكد عليها الإسلام في كل أنواع الوجود .. والاستثناء الوحيد من التَّعددية هي ذات الخالق الواحد سبحانه وتعالى !.. ولذلك ، فالعالم ، في الرؤية الإسلامية ، هو (منتدى حضارات) ، تتفاعل وتتعارف ، من موقع التَّمايز الذي يحفظ لكل حضارة ما يميِّزها عن غيرها من الحضارات ..

● **وبهذا المنهاج ، أيضاً ، كانت نظرة ثقافتنا إلى التَّطور .. وإلى التاريخ .. وإلى المواريث الحضارية .. فميَّزت بين** (الثوابت) ، الممثِّلة (للهوية) ، وبين (المتغيّرات) .. وجعلت (التَّجديد) قانوناً في عالَمَي الدين والدنيا ، حتى لقد قال نبيّنا ﷺ : « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لها دينها »[1] .. وهي بهذا قد **رفضت الجمود لكنها ترفض (الحداثة)** التي تقتلع الجذور ، وتطمس الهوية ، وتقطع التواصل الحضاري ، عندما تسوي بين (الثوابت) وبين (المتغيرات) .. ترفض هذه (الحداثة) كما ترفض (التَّحجُّر والجمود) ، وتختار ، بدلاً منهما ، سبيل (التَّجديد) !..

☆ ☆ ☆

تلك أمثلة على ما تعنيه (الوسطية الإسلامية الجامعة) في تميُّز هويتنا وأصالتنا الثقافية .. وإذا كانت (الثوابت) في سمات (الهوية الثقافية) لها من الاستمرارية والفعل ما لا يكون (للمتغيرات) و (الجزئيات) ، **فإن (التَّجديد)**

(١) رواه أبو داود .

و (التَّفاعل) مع الحضارات المختلفة ، يقتضي من كل ثقافة من الثقافات ـ ويتطلب لها ـ التَّمييز ، في ثمرات الفكر الإنساني ، بين (المشترك الإنساني العام) ، الذي لا تتغاير الحضارات ولا تختلف في حقائق وقوانين علومه ، لأنها ثابتة ومحايدة ثبات وحياد مادة هذه العلوم وموضوعاتها .. وبين (الخصوصيات الحضارية) ـ ومنها الثقافات ـ وهي التي موضوعها (النفس الإنسانية) ، المتميزة في كل حضارة من الحضارات ، تبعاً لتميُّز المكونات التي تنطبع على صفحتها : ديناً ، وفلسفة ، وآداباً ، وفنوناً ، وعادات وتقاليد .. ومواريث تتمايز فيها أمم الحضارات ..

وإذا كانت فلسفة العلوم الطبيعية ـ ذات القوانين والحقائق الثابتة ـ هي مما تتمايز فيها الحضارات .. فإن الثقافة ـ من باب أولى ـ هي ميدان من ميادين التمايز والتعددية بين الحضارات ..

وعلى (تقنيات الاتِّصال الحديثة) أن تحقق للعلاقات الثقافية بين أمم الحضارات الإنسانية العدالة التي تحفظ المساواة

بين هـذه الأمم ، كأعضـاء متسـاويـة الحقـوق والـواجبـات في (منتـدى الحضـارات العـالميـة المتميزة) .. وأن لا تكون أداة قهر وغلبة لثقافـة على ثقـافـة ولحضـارة على حضـارة أخرى .. وإلا فـإنها ستفتح على الأمم الفقيرة والمستضعفـة أبـواب (رد الفعـل العنيف والمضـادّ) .. وأبواب (الرَّفض الفكري) ، الـذي لا يميِّز بين ما هو (مشترك إنساني عام) وبين (الخصوصيـات الثقـافيـة والحضارية) !..

وإذا كان (الرَّفض والانغـلاق) يقـود أصحـابـه إلى (الضمـور) ، فـإن (التقليـد والتَّبعيـة) تقـود أصحـابها إلى (الذَّوبان والفناء) في الآخرين !..

ـ ٤ ـ

العلاقة مع الحضارات الأُخرى

وإذا كان هذا هو الموقف من علاقة (الأنا : الحاصرة) في الثقافة الإسلامية بـ (الموروث الحضاري) ، والهوية الثقافية .. فإن الموقف الراهن في أزمة الفكر الإسلامي الحديث ، يشهد قضية أخرى يدور حولها الجدل ، ويحتدم في المخرج منها الخلاف .. تلك هي قضية : علاقة (الأنا : الحضارية) بـ (الآخر الحضاري) .. وعلى وجه التَّحديد ، بـ (الآخر الحضاري) ، المهين عالميّاً ، وهو الحضارة الغربية !..

وفي اعتقادي أن الرؤية الإسلامية لهذه القضية هي من البساطة والتَّميز والموضوعية ، إلى الحدّ الذي لا بدَّ وأن تحسم حسماً نهائيّاً ، شريطة أن تفهم عناصر هذه الرؤية الإسلامية فهماً جيِّداً .. وهي العناصر التي نوجزها في هذه النقاط :

● إن الإسلام ينظر إلى البشر أجمعين باعتبارهم : (وحدة واحدة متساوية في الخلق لله الخالق الواحد) .. وباعتبارهم ، في ذات الوقت : (متعدِّدين في الروابط والجامعات) .. وهذه (الوحدة في الخلق) مع (التعددية في الجامعات) ، هما موطن الإثارة في الآية الكريمة : ﴿ ياأيُّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِن ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفوا ، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ ، إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ ﴾ [الحجرات : ٤٩/١٣] ..

فالاشتراك والوحدة في الخلق ، وفي الإنسانية ، يزامله التَّعدد والتَّمايز إلى شعوب وقبائل وأقوام .. بل إن القرآن الكريم يتحدث عن هذه التَّعددية باعتبارها آية من آيات الله سبحانه ، وسنّة من سننه في خلقه ، فيقول : ﴿ ومِن آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ والأرْضِ واخْتِلافُ ألْسِنَتِكُمْ وألْوانِكُمْ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِلعالِمينَ ﴾ [الرُّوم : ٣٠/٢٢] .

● وفي الدين أيضاً ، يؤكد الإسلام على (وحدة البشرية في دين الله الواحد) ، أزلاً وأبداً .. مع (تعدُّد الشرائع بتعدُّد أمم الرسالات الدينية) ، أزلاً وأبداً كذلك .. فالقرآن الكريم قد

نزل ﴿ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيهِ وهُدًى وبُشْرى لِلْمُؤْمِنينَ ﴾ [البقرة : ٩٧/٢] ، و ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ ﴾ [البقرة : ٩١/٢] .. والرسول ﷺ ، كذلك ﴿ وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِن كِتابٍ وحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُم لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ [آل عمران : ٨١/٣] .. والله سبحانه وتعالى ، يتحدَّث إلى رسوله فيقول له : ﴿ قُلْ آمَنّا بِاللهِ وما أُنْزِلَ عَلَينا وما أُنْزِلَ عَلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويَعقوبَ والأَسْباطِ وما أُوتِيَ موسى وعيسى والنَّبيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمونَ ﴾ [آل عمران : ٨٤/٣] .

ومع هذه (الوحدة في الدين) ، كانت (التَّعدُّدية في الشرائع) لدى أمم الرسالات .. فالبعثة المحمدية قد تميَّزت بالشريعة الخاتمة ﴿ ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَريعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْها ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ ﴾ [الجاثية : ١٨/٤٥] .. وكذلك كان حال الأمم السابقة ، فاليهود ﴿ عِنْدَهُمُ التَّوراةُ فيها حُكْمُ اللهِ ﴾ [المائدة : ٤٣/٥] .. ﴿ يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الَّذينَ أَسْلَموا

لِلّذينَ هادوا ..﴾ [المائدة : ٥/٤٤] .. وكذلك حال النَّصارى مع الإنجيل ﴿ وَلْيَحْكُمَ أهْلُ الإنْجيلِ بِما أنْزَلَ اللهُ فيهِ ﴾ [المائدة : ٥/٤٧] .. ثم كانت الشريعة الخاتمة ﴿ وأنْزَلْنا إلَيكَ الكِتابَ بالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ مِنَ الكِتابِ ومُهَيْمِناً عَليهِ ، فَاحْكُمْ بَينَهُمْ بِما أنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهُم عَمّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ .. ثم تمضي الآية لتقرّر أزلية وأبدية هذه السُّنة الإلهية في تعدُّد الشرائع بتعدُّد أمم الرسالات ، فتقول : ﴿ .. لِكُلٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً وَلَو شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمةً واحِدةً ولٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فيمَاءَاتَاكُمْ فَاستَبِقُوا الخَيْرَاتِ إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِما كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٥/٤٨] .

ففي الدين : وحدة الرسل والرسالات ، ووحدة أمم هذه الرسالات .. وفي الشريعة : تعددية تتمايز فيها وبها أمم الرسالات .. للابتلاء والاختبار والتنافس واستباق الخيرات .. ولقد وقف مفسرو القرآن الكريم أمام هذه الآيات فقالوا : « إن الشَّرعة والشريعة : هي الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة .. والمعنى : أن الله جعل التوراة لأهلها ، والإنجيل

لأهلـه ، والقرآن لأهلـه » ، وهـذا في الشرائع والعبـادات .
والأصل : التوحيـد ، لا خلاف فيـه .. ﴿ ولو شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمةً واحـدةً ﴾ : أي لجعل شريعتكم واحـدة ، ﴿ ولكِنْ لِيَبلوَكُم فيما آتـاكُمْ ﴾ .. أي ولكن جعـل شرائعكم مختلفـة ليختبركم ، (والابتلاء) : الاختبار[1] .

وعن هـذه الحقيقـة ، التي أفـاض القرآن في تقريرهـا وفي الإفصاح عنهـا ـ حقيقـة : الوحـدة في الـدين مع التعـدديـة في الشرائع ـ يعبر الحديث النبوي هذا التعبير الجميل ، عندمـا يقول صلوات الله وسلامه عليه : « الأنبيـاء : إخوة من عَلاَّت ـ [أي من أب واحد] ـ وأمهاتهم شَتَّى ، ودينهم واحد »[2] .

فكمـا توحـد النـاس ويتوحـدون في الخلق والإنسـانيـة ، مع التعـدديـة في الأقوام والشعوب والقبـائل والألوان واللغـات ... كـذلـك ، قـد اتحـدوا في الـدين ، وتعـددت أمم الرسـالات في

---

(١) القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٢١١/٦ ، طبعة دار الكتب المصرية .
(٢) رواه البخاري ومسلم .

الشرائع التي شرعها الله ... فالوحدة .. مع التعددية هي سنة الله ، التي تلتزمها الرؤية الإسلامية في هذا الميدان ..

● وكذلك الحال في ميدان الحضارات .. فعلى مرّ التاريخ عرفت البشرية التَّعددية في الحضارات ، مع الالتقاء والتَّبادل والتَّفاعل فيما هو مشترك إنساني عام بين هذه الحضارات .. فمع الخصوصيّات الحضاريّة ، التي تتميَّز بها كل حضارة عن غيرها ، هناك ما هو مشترك إنساني عام بينها جميعاً ، وخاصة في المعارف والعلوم التي تشترك في ثبات الموضوع ووحدة المناهج والحقائق والقوانين ..

فالعلاقة بين (الأنا : الحضارية) وبين (الآخر : الحضاري) ، يجب أن يحكمها هذا القانون .. التَّفاعل والتَّبادل الحضاري ، لا التَّبعية ـ بزعم الوحدة الحضارية ـ ولا الانغلاق والعزلة ـ بزعم الاختلاف الكامل والكلّي ـ .. فكما أن التَّعددية في الأمم هي سنّة من سنن الله في الخلق ، كذلك التَّعدُّدية في الحضارات ، لأن هذا التَّمايز الحضاري هو واحد من أهم أسباب هذه التَّعددية بين الأمم .. وكما أن (التَّعارف) ـ الذي أمرنا الله

به ليكون طابع العلاقات بين الأمم والشعوب ـ يقتضي العدول عن القطيعة ، ورفض (الصراع) .. فكذلك (الاختلاف) ـ الذي جعله الله سنّةً ومظهراً للتّعددية ، يقتضي رفض (التّبعية) أو (الهيمنة) ، بزعم وحدة الحضارة للبشر أجمعين ﴿ وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمَّةً واحِدَةً ولا يَزالونَ مُخْتَلِفينَ ، إلاّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ ، ولِذلِكَ خَلَقَهُم ﴾ [هود : ١١/١١٨-١١٩] .. ولقد قال المفسّرون لقوله تعالى : ﴿ ولِذلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ : إن معناها : « وللاختلاف خلقهم »(١) !.. ففي الاختلاف والتّمايز : التّنوع ، والغنى ، والتّنافس في استباق الخيرات .

وهنا .. لسائل أن يسأل : إذا كانت الرؤية الإسلامية مع (التّعددية الحضارية) ، كسنّة من سنن الله في تعدّد الأمم التي تتمايز بتمايز الحضارات .. ومع التّبادل والتّفاعل الحضاري فيما هو مشترك إنساني عام بينها ، امتثالاً لأمر الله وحكمته أن يكون التّعارف هو رباط وسمة العلاقات بين أمم الحضارات

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٩/١١٤ ، ١١٥ .

المتعددة .. إذا كانت هذه هي رؤية الإسلام لهذه القضية ، فما الموقف إزاء علاقة (النَّفي والصراع) التي مارستها وتمارسها الحضارة الغربية مع وبإزاء غيرها من الحضارات والمواريث الحضارية التي وجدتها لدى الأمم التي اتَّصلت بها أو غزت بلادها منذ الزحف الاستعماري الكبير الذي شنَّته على العالم قبل قرنين من الزمان ؟!..

هنا ، وفي الإجابة على هذا السؤال ، لا بدَّ من التَّنبيه على رفض الإسلام أن يكون (النَّفي والصراع) هو طابع العلاقة مع (الغير) ـ فالإيمان بالتَّعددية يقتضي الإيمان بحقِّ الغير في الوجود المتميِّز ، حتى تكون هناك تعدُّدية حقيقية .. ولهذه الحكمة كان (التّوازن) بين الفرقاء المتميِّزين هو مذهب الإسلام في العلاقة بين الطبقات الاجتماعية داخل الأمة الواحدة ، وبين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى .. وهذا (التوازن) يفترض ، بل ويشترط كي يقوم وجود (فرقاء) متمايزين ومختلفين .. أما (الصراع) فإنه يعني ابتغاء (نفي) الآخر ، والانفراد والواحدية دون شريك !..

ولأن هذه هي فلسفة الإسلام في العلاقة بالآخر ، كان

استخدام القرآن الكريم لمصطلح (الدفع) عندما تدعو الحاجة ، بسبب اختلال توازن العلاقات مع الأغيار ، وحلول (الخلل) محل (التّوازن) وسيادة (الظّلم) بدلاً من (العدل) ، وقيام (الجور) بدلاً من (الوسطية) .. هنا يكون (الدفع) ، أي الحركة الاجتماعية التي تبتغي إعادة العلاقات إلى مستوى ولحظة ومقام (التوازن) ثانية ، مع الاحتفاظ بالتَّعددية والتّمايز للفرقاء المختلفين .. هنا يكون (الدفع) ، ولا يكون (الصراع) ، لأن الصراع يقتضي نفي الآخر ، بصرعه ، وإنهاء وجوده ، والانفراد والواحدية .. فهو ضدّ فلسفة التَّعددية ، وضدّ شرعية ومشروعية تمايز الفرقاء المختلفين .. ففي (الصراع) .. ﴿ فَتَرى القَوْمَ فيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٌ ﴾ [الحاقّة : ٦٩/٧] .. أما في (الدفع) فإن الغاية مختلفة : ﴿ ٱدْفَعْ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ فَإذا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ ﴾ [فُصّلت : ٤١/٣٤] ..

فإذا كانت الحضارة الغربية قد تبنَّت واعتمدت فلسفة (الصراع) ، فرأته قانون العلاقة في الأحياء ، صراع البقاء في

الدارونية ـ وفي الاجتماع ـ الصراع الطبقي في الماركسية ـ وفي العلاقات مع الحضارات الأخرى ـ المسخ والنَّسخ والتَّشويه لمواريث الأمم التي أصابها الاستعمار والهيمنة الغربية .. إذا كان هذا هو طابع العلاقة ، كما فرضتها الحضارة الغربية علينا .. فهو كالقتال الذي فُرِض علينا ـ وهو كُرْهٌ لنا ! ـ وعسى أن تكون الثمرة ، ثمرة هذا الصراع الذي فرض علينا ، شحذ الهمة في معركة التَّجديد للفكر الإسلامي ، إخراجاً له من أزمته المعاصرة ، وتجديداً لواقع الأمة به ، لا لننفي (الآخر الحضاري) ، وإنما لنقسره غداً ، كما قسره أسلافنا بالأمس ، على التَّخلي عن طموح الهيمنة الحضارية ، وعلى القبول بالتَّعدُّدية ، ليصبح الكوكب الذي نعيش عليه (منتدى حضارات) ، تتفاعل وتتبادل العلم النافع ، وتحتفظ كل منها بما لها من خصوصيات .. مثلها كمثل الإنسان الراشد المستقلّ ، يصافح الجميع ، دون أن يفقد بصمته وهويته التي تميِّزه عن الجميع !..

إننا نرى الآن قضية علاقة (الأنا : الحضارية) بـ (الآخر : الحضاري) ، واحدة من قضايا (أزمة الفكر)

الإسلامي الحديث .. بينما هذه القضية لم تكن بالأمس ـ عندما قامت علاقة أسلافنا العظام بالحضارات الأخرى ، هندية وفارسية وإغريقية .. لم تكن من قضايا (الأزمة) .. بل كانت من سمات (الصحة) ومظاهر (النهضة) ؟!.. وما كان هذا الفارق بين حال ذات القضية اليوم عنها بالأمس إلا من الفارق بين حالنا اليوم وحال أسلافنا بالأمس .. لقد تفاعلوا مع (الآخر الحضاري) من موقع القويّ الراشد المستقلّ ، فكانت (لمعدتهم الحضارية) ـ إن جاز التعبير ـ القدرة على التمييز بين الصالح والفاسد ، بين النافع والضّار ، بين الملائم وغير الملائم في مواريث الآخرين .. فلم تكن في العلاقة (قضيّة) مشكلة على الإطلاق !.. أما نحن ، فإننا نتعامل من موقع الضعيف المهزوم ، الذي تحالفت عليه تحدّيات : التَّخلف الموروث .. وتحدّيات : الاستلاب الحضاري الوافد في ركاب الغزاة !..

وليس كالتَّجديد للفكر الإسلامي باباً يدخل منه العقل المسلم إلى عالم النهضة ـ له ولأمته ـ من جديد ، فيتجاوز هذه المآزق ويحلّ هذه المشكلات .

ـ ٥ ـ

انقسام العقل المسلم حول (مرجعية) المشروع الحضاري

لا يختلف (الإسلاميون) وهم الملتزمون بالإسلام فكراً وحركة حول اعتبار الإسلام هو المرجع (الضمني والمعلن) في المشروع الحضاري ، الذي يعملون على صياغة معالمه ، كي يكون دليل العمل للنهضة الإسلامية المنشودة .. لكن هذا الذي لا يختلف عليه (الإسلاميون) هو موضع خلاف مع قطاعات مؤثرة من (المسلمين) الذين وإن تديَّنوا بالإسلام ، عقيدة وشعائر ، إلا أنهم لا يلتزمون به مرجعاً للدولة وسياسة المجتمع وتنظيم شؤون العمران ، فمرجعية الإسلام للمشروع الحضاري موضع خلاف ونزاع بين (الإسلاميين) وبين بعض (المسلمين) !

ولـذلـك ، فـإن واحـدة من قضـايـا أزمـة الفكر الإسلامي الحديث ، هي قضية كيفية تعامل (الإسلاميين) مع هـذا النفر من المسلمين ـ العلمانيين ـ الـذين يتـديـنـون بـالإسلام لكنهم يريدونه كالمسيحية ، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟!..

وبـالطبـع ، فـإن نشـأة هـذا الانقسـام في العقـل المسلم إلى (إسـلاميين) و (علمـانيين) هـو أمر طـارئ على المسيرة التطوريـة للفكر الإسلامي والعقـل الإسـلامي ، لأنـه ثمرة من الثمار المرة لهيمنـة الفكر الغربي العلمـاني على القطـاعـات النشطـة والمـؤثرة في حركتنـا الفكريـة ومـؤسسـاتنـا العلميـة والتعليميـة والإعلاميـة .. فلقـد فرض الغزو الفكري الغربي على قطـاعـات عريضة من (النخب) المثقفة في ديار الإسلام نمط حضـارتـه في علاقـة الـدين بـالـدولـة والاجتماع والعمران ، فتخلق في واقعنـا الفكري قطـاع (متغرب) يرى أن المرجعيـة في مشروعنـا النهضـوي هي (للخيـار الحضـاري الغربي) وليس لـلإسـلام .. فكان هذا الانقسام ، الذي يمثل واحـدة من قضـايـا أزمـة الفكر الإسلامي في الحياة المعاصرة .

ويزيد من تعقيد هذه القضية اختلاف مواقف الإسلاميين حول تقييم مكانة العلمانيين وموقعهم والموقف منهم ؟.. وهل هم فصيل واحد ، فيكون الموقف منهم موقفاً واحداً ؟!.. أم أنهم فصائل ، هم الآخرون كفصائل الإسلاميين ؟!.. ومن ثم فلا بدَّ من تمييز فصائلهم ، والتمييز في المواقف التي تُتَّخَذُ حيال كل فصيل ؟؟..

وإذا كان لهذه الصفحات أن تقدِّم لهذه القضية إشارات تسهم في وضوح الرؤية لها ، وتسهم في تصور الحلّ الذي تراه موضوعيّاً .. فإنها تجمل هذه الإشارات في عدد من النقاط :

أولاها : أن الخلاف بين الإسلاميين وأغلب العلمانيين هو خلاف في المشروع الحضاري ، أي حول (الدولة) الإسلامية ، وليس حول (العقيدة) الإسلامية .. ومن ثم فإنه خلاف في (الفروع) .. ولذلك فإن معايير الحديث فيه والحكم على فرقائه ومقولاتهم إنما يكون بمصطلحات : (الصواب) و (الخطأ) و (النّفع) و (الضَّرر) ، وليس بمعايير (الإيمان) و (الكفر) و (الهداية) و (الضّلال) .

وثانيها : ضرورة التميز في الحركة العلمانية ، سواء في نشأتها الغربية أو في ضرورة امتداداتها في بلادنا بين فصائل ثلاثة :

أ ـ العلمانيّون الثّوريّون : وهم أصحاب النَّزعة المادية ، التي لا تقنع بمجرد الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة ، وإنما تطمع إلى انتزاع التَّديُّن من العقل والقلب والفكر والثقافة والمجتمع .. وخلاف الإسلاميين مع هذا الفصيل العلماني هو خلاف في (الأصول) ، وليس مجرد خلاف في (الفروع) ، ومعايير تقييمه لا تقف فقط عند مضامين مصطلحات (الخطأ) و (الصّواب) و (الضَّرر) و (النَّفع) ، وإنما تتعدّى هذا الإطار ؟!..

ب ـ العلمانيّون الدّاعون ، بوعي ، لتبعيّتنا ، في المرجعية الحضارية ، للنموذج الغربي : وهم الذين لا يقف اختيارهم للعلمانية ، وتبشيرهم بالخيار الحضاري الغربي عند حدود (الاجتهاد الخاطئ) ، وإنما يقف وراءه كيد للإسلام

وحضارته ، ودعوة للبديل الغربي باعتباره السبيل إلى إزاحة الإسلام عن طابع الحياة ..

ولقد بدأ تَخَلُّق هذا الفصيل ، من فصائل العلمانية ، في واقعنا الحديث ، بنفر من مثقفي الطائفة المارونية بالشام ، الكارهين للإسلام تبعاً لكراهيتهم للدولة العثمانية ، وبفعل (العمالة الحضارية) أو السياسية التي ربطت علاقاتهم وأنشطتهم بالمدّ الاستعماري الغربي ، فتبلورت دعوتهم ومؤسساتهم الصحفية والفكرية في أحضان سلطات الاستعمار .. منذ حركة وأفكار (الجنرال) يعقوب (١٧٤٥ ـ ١٨٠١ م) إبان الحملة الفرنسية على مصر ومروراً بـ (مدرسة) مجلة (المقتطف) (١٨٧٦ - ١٩٥٢ م) وصحيفة (المقطم) (١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ م) وأعلامها : يعقوب صروف (١٨٥٢ ـ ١٩٢٧ م) وفارس نمر (١٨٥٦ - ١٩٥١ م) وشاهين مكاريوس (١٨٥٣ ـ ١٩١٠ م) وشبلي شميل (١٨٦٠ ـ ١٩١٧ م) وسلامة موسى (١٨٨٨ ـ ١٩٥٨ م) ثم لويس عوض (١٩١٤ ـ ١٩٩٠ م) ، وأمثالهم من الذين انطلقوا في تبني الخيار العلماني الغربي ، لا من (اجتهاد خاطئ)

ـ ويعذر صاحبه ـ بل ويؤجر رغم الخطأ وإنما من (وعي) بأن هذا هو البديل للإسلام الذي يكرهون ، عندما لم تسعفهم مسيحيتهم ببديل !

وهذا الفصيل من فصائل العلمانيين ، وإن لم ينزع إلى المادّية الملحدة ، فيكون الخلاف معه في أصول الإيمان والتَّدين ، إلا أنه قد اختار مواقع (العملاء الحضاريين) فالخلاف معه قائم في أصول الانتماء والهوية والمشروع الحضاري .. الأمر الذي يجعل التَّناقض معه تناقضاً عدائيّاً إلى حدٍّ كبير !

جـ ـ دعاة فصل الدين عن الدولة من العلمانيين الوطنيين والقوميين : من المفكرين والساسة والأحزاب الذين انبهروا بنهضة الغرب عندما قارنوها بتخلُّف النموذج العثماني ، الذي حسبوه هو نموذج الإسلام .. فظنوا أن استعارة النموذج الغربي في الحضارة هو السبيل إلى نهضة الشرق كي يتحرر من الاستعمار الغربي ، ويعود إلى الإسهام في إثراء الحضارة الغربية ، التي حسبوها عالمية وإنسانية للبشرية جمعاء !

وهذا الفصيل من فصائل الحركة العلمانية ، هو الأكثر

نفوذاً ، والأوسع انتشاراً .. وعلى الإسلاميين أن يميزوا بينه وبين الفصيلين الأولين ، مهما بدت الحدة والفجاجة والاستفزاز في مقولات مفكّريه ومثقّفيه ، فكثيرون من أعلام هذا الفصيل ، يعودون ـ بدرجات متفاوتة ـ عن مقولات التَّغريب ، ويتقربون ـ بدرجات متفاوتة ـ من الرؤية الإسلامية لمشروع النهضة ، ومن تبنّي الإسلام مرجعاً للمشروع الحضاري .. فالدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٣٠٥ ـ ١٣٧٥ هـ / ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م)تراجع عن دعوته إلى الفرعونية ، وعن دعوته إلى تبنّي النموذج الحضاري الغربي ، وانتقد العلمانية بعد أن كان المدافع عنها[1] ! وأحمد لطفي السيد باشا (١٢٨٩ ـ ١٣٨٣ هـ / ١٨٧٢ ـ ١٩٦٣ م) راجع موقفه القديم الذي كان يرفض الجامعة الإسلامية والرابطة العربية ويسوي بينها وبين الاستعمار[2] ! ومنصور فهمي باشا (١٣٠٣ ـ ١٣٧٨ هـ / ١٨٨٦ ـ ١٩٥٩ م)

(١) (حياة محمد) ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٥١٦ ، ٥١٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م ، و (في منزل الوحي) ٢٢ ـ ٢٦ ، ١٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

(٢) قصة حياتي ، طبعة كتاب الهلال ـ القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

تراجع عن الافتراء الذي كتبه عن صورة المرأة بنظر الإسلام ! وحتى طه حسين (١٣٠٦ ـ ١٣٩٣ هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣ م) الذي حال كبرياؤه بينه وبين نقد الذات نراه يعيد طبع سائر كتبه إلا كتابه الذي مثّل عنده قيمة التغريب ، وهو كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) ! بل إن هذا الكبرياء لم يمنعه من إعلان رأيه الجديد ـ والإيجابي ـ من الرابطة القومية العربية ! وسيد قطب (١٣٢٤ ـ ١٣٨٦ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦ م) الذي كان في يوم من أيام مسيرته الفكرية ، داعية لإقامة أندية للعراة في بلادنا ، ويومها نصح الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م) بالامتناع عن مهاجمته ، لعل الله أن يهديه وينفع به الدعوة الإسلامية ؟! سيد قطب هذا هو الذي انتهى إلى موقعه المعروف في الدعوة والحركة الإسلامية !

تلك إشارات ونماذج تؤكد على ضرورة التميز بين فصائل التيار العلماني في بلاد الإسلام ، كقضية من القضايا التي تواجه الفكر الإسلامي الحديث ، ويحتدم حولها الجدل بين الإسلاميين ..

وثالثة الإشارات : التي نقدّمها حول قضية : انقسام (العقل المسلم) حول مرجعية المشروع الحضاري .. تتعلق بالموقف من أعلام اليقظة الإسلامية الذين أرادوا استلهام ما في الحضارة الغربية من (علم نافع) رأوه ثمرة (لأدلته) لا لمنبته الجغرافي داعين إلى توظيف هذا (العلم النافع) في مشروع نهضوي إسلامي الهوية .. وهم الأعلام الذين تفاوت لديهم نضج هذا الوعي ، لكنهم وقفوا جميعاً على أرض الدعوة إلى مشروع حضاري مرجعيته الإسلام .. إن الموقف من هؤلاء الأعلام هو واحد من نقاط الخلاف بين فصائل الإسلاميين ، ومن ثم فهو من قضايا أزمة الفكر الإسلامي الحديث .. فحول رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) وخير الدين التونسي (١٢٢٥ ـ ١٣٠٨ هـ / ١٨١٠ ـ ١٨٩٠ م) وجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) ومحمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م) وعبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م) ومحمد إقبال (١٢٨٩ ـ ١٣٥٧ هـ / ١٨٧٣ ـ ١٩٣٨ م) وأمثالهم يحتدم خلاف بين الإسلاميين !

وإذا كان من الخطأ ـ بل والحرام ! ـ أن نختزل تراثنا القديم فلا نرى فيه سوى ابن تيمية (٦٦١ ـ ٨٢٧ هـ / ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م) وابن القيم (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ / ١٢٩٢ ـ ١٣٥٠ م) فإن الخطأ ـ بل والحرام ! ـ أن لا نرى في فكرنا الإسلامي الحديث غير الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ ـ ١٣٦٦ هـ / ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦ م) والدكتور علي سامي النشار ؟! ـ كما يرى البعض ـ أو غير المودودي (١٣٢١ ـ ١٣٩٩ هـ / ١٩٠٣ ـ ١٩٧٩ م) وسيد قطب ـ كما يرى آخرون ؟!

وغير هذه الفصائل التي تتقاسم التأثير بل والتمزيق للعقل المسلم !.. فهناك تيار التقليد والمحاكاة لموروثنا الإسلامي .. وهو تيار يغلب عليه التقليد والمحاكاة لثمرات عصر تراجعنا الحضاري وجمودنا الفكري ، وفقرنا في الإبداع على وجه الخصوص .. الأمر الذي يجعل من (تقليده) جموداً يعجز العقل المسلم عن الخروج من (الوهدة الحضارية) ، ومن ثم (فراغاً حضاريّاً) لا بد وأن يملأه التغريب ؟!..

فالجهود التي يبذلها تيار (التقليد والمحاكاة للموروث) هي

في حقيقتها لون من (الرفض .. السلبي) للتغريب .. رفض يقف عند نصف (فضيلة الرفض) !.. فهو لا يقبل التغريب والاستلاب الحضاري .. لكنه عاجز عن تقديم الخيار الحضاري البديل والمنافس لخيار التغريب ، الأمر الذي يخدم التغريب عمليّاً ، عندما يترك الفراغ في العقل المسلم ليملأه الخيار التغريبي .. وهو حاضر وبرّاق .. ومدعوم بكل الإمكانات !..

هذا عن (الإشارات) لمعالم هذا الانقسام ...

● ● ●

وإذا نحن شئنا أن نكثف التعبير عن طبيعة ونتيجة هذه الأزمة الفكرية في كلمات ، فإننا نستطيع أن نقول : إن جوهر هذه الأزمة : هو إسراف العقل العربي والإسلامي في المحاكاة والتقليد ، وفقره وافتقاره إلى الإبداع والتجديد !..

● فالقطاع الأكبر من مثقفي هذه الأمة ومفكّريها ، فريسة (للانقسام الحادّ) .. وليس (التَّنوع) .. حول : هوية النفس العربية .. أهي إسلامية ؟.. أم غربية ؟؟ أهي ماضوية

تراثية ؟.. أم ماضوية ومعاصرة ؟؟.. أم أن (الحداثة) ـ التي تقطع الصلات بالموروث ـ هي مذهبها وطريقها ؟؟..

وحتى بين التراثيين الماضويين ، هناك الانقسام الحاد حول : أي ماض وأي سلف ننطلق من ميراثه ونسترشه بآثاره ؟.. أهو سلف عصر الازدهار ؟.. أم سلف عصر التراجع والجمود ؟؟.. بل إن معايير الازدهار والتراجع هي الأخرى موضع خلاف حادّ بين التراثيين الماضويين ؟!.. أضف إلى ذلك خلافهم حول دور العقل ومقامه في التعامل مع الموروث !..

وليس أهل المعاصرة والحداثة بأحسن حالاً في هذا الموضوع .. فإذا كانوا قد اتَّخذوا الحضارة الغربية قبلتهم التي إليها يتوجهون ، ومنبعهم الذي منه يغترفون .. فإن منهم من جعل (الشمولية المادية) سَلَفَهُ الذي يحتذيه .. ومنهم من جعل (الليبرالية الرأسمالية) المثال الذي يبتغيه ، فتوزعهم ، هم الآخرون ، مدارس الغرب وتياراته ومذاهبه الفكرية والاجتماعية .

بل إن هناك نحواً آخر من الخلاف قام ويقوم حول فهم معنى (المعاصرة) .. فعلى حين يفهمها البعض على أنها النموذج الحضاري الغربي .. يراها آخرون : التعامل مع العصر ، حتى ولو أثمر خياراً حضاريّاً متميِّزاً عن النموذج الغربي !..

هكذا .. وعلى هذا النحو ، يعاني القطاع الأكبر من مثقفي هذه الأمة ومفكِّريها من هذا (الانقسام الحاد) في (الأصول .. والمنطلقات .. والمقاصد والغايات) وليس من مجرد (التَّنوع) في السُّبل والمناهج والفروع ..

● ويزيد من مخاطر هذا الانقسام : تكافؤ ـ أو تقارب ـ قوى وإمكانات التيارات الرئيسية التي تتنازع هذه المواقف والمنطلقات والمقاصد والتَّوجُّهات ـ وخاصة تيارَي التقليد لماضينا وسلفنا ، ولماضي وسلف ونموذج الحضارة الغربية ـ الأمر الذي حال ، حتى الآن ، دون حسم الجدل والاختلاف حول طبيعة (هوية النفس العربية) ، وطبيعة (مذهبية ثقافتها) ..

فهذا التكافؤ ـ أو التقارب ـ بين تيار التقليد والمحاكاة للسلف ـ وهو الذي يجتذب وجدان العامة وأفئدة الجمهور .. وبين تيار التقليد والمحاكاة للغرب .. وهو الذي يهيمن على القطاعات المؤثرة ومراكز التوجيه في العلم والتعليم والتثقيف والإعلام .. هذا التكافؤ .. أو التقارب بين (تيارَي المحاكاة والتقليد) ؟! مع ضعف تيار الإبداع والتجديد ـ هو الذي جعل الأمة ، ويجعلها تستنفد أغلب طاقاتها الثقافية والفكرية في هذا (الصراع الداخلي) ، على النحو الذي جعل بأسها بينها شديداً .. فاستنزفت أغلب هذه الطاقات في (الصراع) لا في (الإبداع) .. يهدم تيار ما يبنيه الآخر ، ويقتلع هذا ما يغرسه ذاك .. فكأنهما يمارسان (لعبة شدّ الحبل) ، فوقف فعلهما معاً ـ بسبب تكافؤ الطاقات ـ عند نقطة (الصفر) لا يتعدّاها ؟!..

لقد تحصَّنت هذه التيارات بالتقليد ، لا بالتجديد . التقليد للتَّخلف الموروث أحياناً وللوافد غير الملائم أحياناً أخرى . الأمر الذي أفضى إلى انتشار أخطر أمراض أزمة الفكر الإسلامي .. مرض : الفقر في الإبداع والتجديد ، والإخلاد إلى المحاكاة

والتقليد .. وهل هناك أزمة فكرية أسوأ وأشدّ من توقف عقل الأمة عن الإضافة الخلاقة ، ووقوفه عند الأعتاب مستفتياً ؟!.. يستفتي أمواتنا الحلول لمشكلات (الأحياء) !.. أو يستفتي (الآخر الحضاري) الحلول لمشكلات (الذات) !!

ذلك هو (الشَّلل) الذي يعبر عن جوهر أزمة الفكر الإسلامي ، كما يراه كاتب هذه الصفحات ..

● ● ●

لكن ... ...

إذا استطاعت هذه السطور التي سبقت (الإشارة) إلى جوهر الأزمة ، فإن المقام لا يستغني عن (تفصيل) مناسب للإطار يلقي الضوء على معالم ومواقع هذه التيارات التي تتقاسم التعبير عن ثقافتنا وفكرنا والتأثير على عقل الأمة ووجدانها .. ففي ذلك بيان لأبعاد الأزمة وحجمها ، وفيه ، كذلك ، إشارات إلى طريق الخروج منها ، والانعتاق من مأزقها ..

وإذا كانت هذه ، التيارات الفكرية والثقافية قد تمثَّلت ـ إجمالاً ـ في :

- تيار التقليد للموروث ..
- وتيار التقليد للوافد الغربي ..
- وتيار الإحياء والتجديد ..

فإن المقام يقتضي حديثاً يوجز ويكثِّف معالم كل تيار من هذه التيارات ..

١ ـ تيار التقليد والمحاكاة للموروث :

منطلقات هذا التيار ومنابعه : هي فكر أسلافنا ، الذي تبلور في عصور التَّراجع لحضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص والتحديد !.. فأهله ومؤسساته لا يعرفون كثيراً عن حقيقة المنابع الجوهرية والنقية لفكر الحضارة الإسلامية ، ولا يهتمون كثيراً بإبداع عصر الازدهار لهذه الحضارة .. وأغلب زادهم الفكري هو ابن لقرون التَّراجع والجمود المملوكية العثمانية ..

وإذا كان هذا التَّيار قد ضمَّ فصائل ثلاث :

أ ـ **مؤسسات العلم والتعليم الموروثة** .. مثل الأزهر ، وما ماثله وشابهه من المدارس والجامعات ..

ب ـ **والطرق الصُّوفيّة** .. وتنظيماتها ، ومشيخاتها المتعددة ..

جـ ـ **والنُّصوصيّون** .. الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ودلالاتها ، عازلين إياها عن ملابساتها وعن مقاصد الشريعة والتشريع المبتغاة من هذه النصوص .

إذا كانت تلك هي أبرز فصائل هذا التيار .. فإننا نعرف له فضل الحفاظ على تراثنا ، وفضيلة الدفاع عنه أمام الوافد الغربي الذي أراد اقتلاعه والحلول في مواقعه ، الأمر الذي حفظ للأمة ولثقافتها التَّواصل مع ماضيها الحضاري ، ومكَّن لحركات الإحياء والتَّجديد من مادة ومنطلق هذا الإحياء والتَّجديد ..

ذلك فضل لا ينكر لفصائل هذا التيار ..

لكن هذا التيار ، الذي جفل من (الوافد الغربي) فانكفأ على (الذات) . قد ظلَّ عاجزاً عن صياغة الخيار الحضاري

والنموذج التَّجديدي القادر على منافسة النموذج الغربي .. لا لقصور طبيعي في عقول أعلام هذا التيار ، وإنما لعيب في بضاعتهم الفكرية .. فلقد كانت بضاعة عصر تراجعنا الحضاري .. أي أنها كانت عرضاً من أعراض مرض التَّخلف الحضاري الذي أصاب هذه الأمة ، فأنّى لها أن تكون سبيلاً ومادةً للنهضة والإحياء ؟!

لقد تأملت ـ وأنا الذي درست في الأزهر ـ وتساءلتُ : لماذا كانت أغلب الكتب التي ندرسها مؤلفة في عصر التراجع وليس في عصر الإبداع الحضاري لأمتنا ؟!.

وفي ضوء هذا التأمل ، وهذا التساؤل ، فهمت معنى عبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) التي يقول فيها عن الأزهر وأبنائه في عصره : (إنهم لا يتعلمون) في الأزهر ، إلا بعض المسائل الفقهية وطرفاً من العقائد ، على نهج يبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها ! وجل معلوماتهم : تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ، ولا يُرجى نفعها .. فهم أقرب للتأثر

بالأوهام ، والانقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع إلى مشايعتها منهم !.. فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية !»[١] .

وهذه المؤسسات التعليمية العريقة الموروثة ، عندما سلكت طريق التطور ، أخذت (بشكل) التجديد ، لا بجوهره ، فاقتربت ـ في أحيان كثيرة ـ من (التغريب) أكثر من اقترابها من المنابع الجوهرية والنقية للفكر الذي أبدع وميز حضارة الإسلام !..

أما المؤسسات الصوفية ، فإنها ـ باستثناء القلة القليلة التي رحم ربي ـ قد استبدلت الشعوذة والخرافة بحقيقة التصوف ، كسبيل لتهذيب النفس ، ورافد يزامل العقل في إقامة التوازن بثقافة الإنسان ..

وإذا كان التيار النصوصي الحديث ، قد نفض عن عقائد الدين كثيراً من البدع ، وعن تصورات العامة كثيراً من

(١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) ٣/١١٢ ـ ١١٤ ، دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة بيروت ١٩٧٢م .

الخرافات ، فإن جموده عند حرفية ظواهر النصوص قد أورثه العجز عن إبداع المشروع الحضاري الذي يصوغ الإنسان المقاوم للزحف الغربي .. لقد أضاف هذا التيار النصوصي حصناً جديداً منيعاً إلى حصون (الرافضين للتغريب) ، والممتنعين عن الاستلاب الحضاري .. لكن عجزهم عن إبداع البديل الحديث ، القادر على منافسة النموذج الغربي والانتصار عليه ، قد هيأ ذلك (الفراغ) الذي تقدم التغريب لملئه واحتلاله ، إن في عقول (النخبة) التي تغربت ، أو في واقع الأمة الذي أصبح محكوماً بقوانين وفلسفات التغريب !..

وإذا كنا قد أوردنا عبارة الإمام محمد عبده ، التي وصفت الحالة الفكرية لأبناء الأزهر ـ على عهده ـ فإن له عبارة تصف هذا الفصيل النصوصي من فصائل تيار التقليد الموروث يقول فيها عن أهله : إنهم « أضيق عَطَناً[1] وأحرج صدراً من المقلدين ! فهم ، وإن أنكروا كثيراً من البدع ، ونحّوا عن الدين كثيراً مما أضيف إليه وليس منه ، إلاَّ أنهم يرون وجوب

---

(١) أي صدراً وأفقاً .

الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقيد به ، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدينة أحباء ! »[1] .

تلك هي أبرز فصائل هذا التيار .. تيار التقليد والمحاكاة للموروث .. الذي كان له فضل الحفاظ على (الذات الفكرية) ، لكنه انكفأ على هذه (الذات) .. فكانت ـ في أغلبها ـ (ذات) عصر التراجع الحضاري ، الأمر الذي أعجزه عن منافسة النموذج الغربي .. نموذج فكر عصر الإحياء والثورة الصناعية في أوربا ، ذلك الذي جاء إلى بلادنا في ركاب جحافل الاستعمار الغربي الحديث ..

لقد تحصَّن هذا التيار بالماضي ، ومن ورائه أفئدة العامة والجمهور ، فترك الحاضر وعقول النُّخبة التي صنعها الاستعمار في مؤسساته الفكرية ، ووفق مناهجه الوضعية .. ترك كل ذلك فراغاً للاستلاب الحضاري والتَّغريب .

---

(١) المصدر السابق ٣/٣١٤ .

٢ ـ تيار المحاكاة والتقليد للوافد الغربي ـ (التغريب) ـ :

لقد بدأت بذرة هذا التيار أول ما بدأت بمصر إبان الحملة الفرنسية عليها (١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م) فكانت بدايات فكرة الاستقلال عن الموروث ، وقطع حبال التواصل الحضاري .. والاستقلال عن المحيط ، العربي الإسلامي .. واستبدال النموذج الغربي بدلاً من المنابع الحضارية الإسلامية .. والوطنية القطرية بدلاً من الجامعة الإسلامية ..

ولقد صاغ هذا المشروع ـ لاستقلال مصر عن منابعها وعن محيطها .. (المعلم يعقوب) (١٧٤٥ ـ ١٨٠١ م) ، وكان رجلاً من أراذل القبط ، التحق بجيش بونابرت (١٧٦٩ ـ ١٨٢١ م) وأصبح جنرالاً فيه ؟!.. واستخدمه الفرنسيون جلاداً للمصريين .. حتى لقد تبرّأت منه الكنيسة المصرية ، وسمّاه الجبرتي (١١٦٧ ـ ١٢٣٧ هـ / ١٧٥٤ ـ ١٨٢٢ م) : (يعقوب اللعين)[١] ؟!

---

(١) د . محمد عمارة (جمال الدين الأفغاني المفترى عليه) ص ١٠ ـ ١٤ ، طبعة دار الشروق ـ القاهرة ١٩٨٤ م .

وإذا كان هذا المشروع قد قبر بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر (١٢١٦ هـ ـ ١٨٠١ م) ، ومعها (المعلم يعقوب) .. فلقد عاد مشروع (الإلحاق الحضاري) ، بعد احتلال الإنجليز لمصر (١٢٩٩ هـ ـ ١٨٨٢ م) . عاد هذه المرة لتبشِّر به مؤسسات فكرية ومنابر ثقافية ، وأجهزة إعلامية ، قامت ومارست عملها بمصر ، في رعاية سلطات الاحتلال الإنكليزي ، التي كان يقودها يومئذ اللورد كرومر (١٨٤١ ـ ١٩١٧ م) ، ثم أخذت إشعاعات هذه الدعوة في الامتداد إلى ما حول مصر من أقاليم !.

ولقد كان روّاد (مشروع الإلحاق الحضاري) هذا ـ في هذا الطور من أطواره ـ مجموعة من المثقفين الموارنة الشوام ، الذين هاجروا إلى مصر فراراً من السلطة العثمانية ، والذين كانت تحرّكهم كراهية شديدة للدولة العثمانية . وبغض دفين للإسلام .. ولما كانوا أبناء أقلية دينية لا تملك نمطاً للدولة والقانون والعمران ، مماثل أو مغاير لما لدى الإسلام ـ فمسيحيتهم رسالة روحية خالصة لمملكة السماء ، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ـ فلقد رأوا أن البديل المرشح لإزاحة الإسلام عن أن

يكون صبغة النهضة للأمة ، هو بديل التغريب .. فوظّفوا طاقاتهم والمؤسسات التي أقاموها بمصر لخدمة هذا المشروع .. مشروع التبشير بالنموذج الغربي نمطاً لنهضة الشرق وتقدُّمه ، بدلاً من النموذج الإسلامي ـ الذي أهالوا عليه كل سوءات وسيئات العثمانيين ؟!.

● ● ●

وفي ضوء الحقيقة يجب أن نعيد قراءة تاريخ وتأثير مدرسة صحيفة (المقطم) (١٣٠٦ ـ ١٣٧١ هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ م) ومجلة (المقتطف) (١٢٩٣ ـ ١٣٧١ هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٥٢ م) .. وأن نعي دلالات وتأثيرات الفكر الغربي الذي بشَّر به وأشاعه أقطاب وأعلام هذه المدرسة وهذا التيار .. من مثل : يعقوب صروف (١٢٦٨ ـ ١٣٤٥ هـ / ١٨٥٢ ـ ١٩٢٧ م) .. وفارس نمر (١٢٧٢ ـ ١٣٧٠ هـ / ١٨٥٦ ـ ١٩٥١ م) وشاهين مكاريوس (١٢٦٩ ـ ١٣٢٨ هـ / ١٨٥٣ ـ ١٩١٠ م) .. وشبلي شميل (١٢٧٦ ـ ١٣٣٥ هـ / ١٨٦٠ ـ ١٩١٧ م) .. ونقولا حداد (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣ هـ / ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤ م) .. وجورجي زيدان

(١٢٧٧ ـ ١٣٣٢ هـ / ١٨٦١ ـ ١٩١٤ م) .. وفرح أنطون (١٢٩١ ـ ١٣٤٠ هـ / ١٨٧٤ ـ ١٩٢٢ م) .. وبشارة تقلا (١٢٦٥ ـ ١٣٠٩ هـ / ١٨٤٩ ـ ١٨٩٢ م) .. وسليم تقلا (١٢٦٨ ـ ١٣١٩ هـ / ١٨٥٢ ـ ١٩٠١ م) وأمثالهم ، فمن خلال هذه المؤسسات والمنابر ، التي رعاها الاستعمار ، تسرَّبت عناصر المشروع الغربي ، بديلاً للمشروع الإسلامي ، وتسرَّبت (الثقافة الغربية) ـ وليس (حقائق العلم الغربي) ـ لتحلَّ محلَّ الثقافة العربية الإسلامية ، مستفيدين من الفراغ الذي نشأ من عجز تيار التقليد والمحاكاة للموروث ..

وإذا شئنا كلمات معبِّرة ـ بصراحة عارية ـ عن مقاصد هذا التيار ، فإننا نختار كلمات سلامة موسى (١٣٠٥ ـ ١٣٧٧ هـ / ١٨٨٨ ـ ١٩٥٨ م) وهو الذي مكَّنته (مواطنته) المصرية من أجل أن يكون صريحاً ؟! والتي يقول فيها عن ما يريده هذا التيار للشرق وأهله : « **وإذا كانت الرابطة الشرقية سخافة ، لأنها تقوم على أصل كاذب ، فإن الرابطة الدينية وقاحة ، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة**

تربطنا .. ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان .. وحكومة ديمقراطية برلمانية ، كما هي في أوربا ، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ، أوتوقراطية دينية .. إنني ، كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي :

يجب علينا أن نخرج من آسيا ، وأن نلتحق بأوربا ، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له ، وشعوري بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد حبّي لها وتعلُّقي بها ، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها ، وهذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي ، سرّاً وجهراً ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن بالغرب »[1] ؟؟!!..

ولم يكن هذا التيار (الكافر بالشرق ، المؤمن بالغرب) غافلاً عن مكان العربية ـ كلغة قومية ، وكلسان للإسلام ـ في

(١) سلامة موسى (اليوم والغد) طبعة القاهرة ١٩٢٧ م . والنَّص في : دكتور محمد محمد حسين (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) ٢/٢١٢ ـ ٢١٥ ، طبعة القاهرة ١٩٨٠ م .

السمات والقسمات التي تميز الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية .. ولذلك وجدنا (الوعاء اللغوي) ـ العربية ـ مثله مثل (المضمون الفكري) .. الإسلام ، هدفاً لسهام هذا التيار ..

فوجدنا سلامة موسى الذي رأى في (الرابطة الشرقية سخافة) .. وفي (الرابطة الدينية وقاحة) .. ودعا إلى (الخروج من آسيا) ـ و (آسيا) هو التعبير الاستشراقي عن (الإسلام) ؟! ـ وأعلن (كفره بالشرق) و (إيمانه بالغرب) !! رأيناه يدعو إلى (لغة عامية) تكتب (بالحرف اللاتيني) لتنقطع صلات الأمة ـ وهي مصر فقط بنظره ـ مع تراثها العربي الإسلامي ومع محيطها العربي الإسلامي .. رأيناه يدعو إلى (اصطناع العامية لغة أدب ، والكتابة بالحروف اللاتينية ، لأن هذه الكتابة تضمنا إلى مجموعة الأمم المتمدّنة ، وتكسبنا عقلية المتمدنين . فالمتعمّق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد .. فنظره متّجه أبداً نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية ، مع أننا في كثير من

الأحيان نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب ، والثقافة تفرز الذوق والنزعة . وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق .. » .

ثم يكشف سلامة موسى القناع عن أن العداء (للوعاء اللغوي) ـ العربية ـ إنما هو فرع عن العداء (للمحتوى الفكري) .. ـ الإسلام ـ الذي يحتويه هذا الوعاء .. **فيقول عن تراث العربية .. إنه « تراث لغوي يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها !.. فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتلفزيون ، بل لغة القرآن وتقاليد العرب .. »**[1] ؟؟!!

فالالتحاق بالغرب ، حضاريّاً ، والكفران بالحضارة الشرقية .. وبلغتها العربية .. وبتراث هذه اللغة لغة القرآن ..

---

(١) سلامة موسى (البلاغة العصرية واللغة العربية) طبعة ـ القاهرة ١٩٤٥ م ـ والنّص في بحث للأستاذ علي عقلة عرسان ، عن (الفصحى والعامية والحوار المسرحي) ص ٩ ـ طبعة المهرجان الوطني للتراث والثقافة ـ الرياض ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

الحاملة (لعقيدة اجتماعية) يجب أن نحاربها ، بتعبير موسى سلامة ، وترى الحرف اللاتيني ، حرف كتابة للغة عامية ، تقطع روابط أمة الإسلام إلى أقاليم يلتحق كل منها بالغرب الحضاري .. وتبني المضامين الحضارية الغربية بدلاً من المضامين الإسلامية .. هي جماع معالم المشروع الذي بشَّر به هذا التَّيار .. تيار التقليد والمحاكاة للغرب ، الذي اختار هذا الطريق عامداً متعمداً ، وبوعي بمعالم هذا الطريق ، وبنتائجه ومقاصده ، لأن أعلامه كانوا كارهين للإسلام كخيار حضاري لنهضة الشرق والعرب والمسلمين ..

وإذا كانت (مدرسة المقطم) و (مدرسة المقتطف) ـ وهما جناحان لتيار واحد ـ قد عبرا عن (التغريب ـ الليبرالي) فإن السنوات التي أعقبت قيام الثورة البلشفية في روسيا (١٣٣٦ هـ ـ ١٩١٧ م) قد شهدت بدايات تيار (التغريب ـ الشمولي) على يد طلائع (اليهود ـ الصهاينة ـ الماركسيين) .. فعرف هذا التيار ، وعرفت منظماته قادة ومؤسسين ومنظرين من مثل : (روزنتال) .. و (مارسيل إسرائيل) .. و (هنري

كوريل) .. و (أوديت) .. و (إيزاك إسرائيل) ؟! و (وشوارتز) و (ريمون دويك) وأشباههم من شذاذ الآفاق ، الذين انضموا إلى متغربي الموارنة ، مؤملين تحويل المسار الحضاري للأمة عن التوجه إلى رسالة نبيّها محمد بن عبد الله ، ﷺ .. وحالمين بمنافسة أعلامها المحدثين .. من مثل جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) ومحمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م) ورشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م) وعبد الله النديم (١٢٦١ ـ ١٣١٤ هـ / ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦ م) وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ / ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠ م) ومصطفى عبد الرزاق (١٣٠٢ ـ ١٣٦٦ هـ / ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦ م) وسعد زغلول (١٢٧٣ ـ ١٣٤٦ هـ / ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م) وحسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م) .. وغيرهم من الأبناء البررة لثقافة هذه الأمة وحضارتها ..

هكذا بدأ وتبلور تيار التغريب والاستلاب الحضاري ، الذي بشَّر بثقافة الغرب أداة لإزاحة تميّز الثقافة العربية

الإسلامية .. والذي دعا إلى تبني النموذج الحضاري الغربي ، بخيره وبشرِّه ، بحلوه ومرِّه ، زاعماً أن العقل الشرقي كان ولا يزال عقلاً يونانيّاً ، حتى بعد أن تدين أهله بدين الإسلام ؟!

ولقد كان الهدف ـ الذي أعلنه سلامة موسى ـ لهذا التيار هو إخراج الأمة من (آسيا) أي من الإسلام وحضارته ؟!.. وإلحاقها بالغرب ، حضاريّاً .. وهو ذات الهدف الذي وضع بذرته الأولى (يعقوب اللعين) ؟!

● ● ●

٣ ـ تيار الإحياء والتجديد :

في تيار الإحياء والتجديد لثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامي ـ وهو تيار عريض ـ وبه هو الآخر فصائل متمايزة ، إن في ميادين اهتماماتها ، أو في حظها من التجديد ، أو في مقاييس التجديد لديها ، في هذا التيار ، نستطيع أن نرصد أسماء عشرات من العلماء الأعلام .. لكننا نشير إلى بعض من أبرز قادة هذا التيار .. من مثل :

رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ ـ ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م)
وخير الدين التونسي (١٢٢٥ ـ ١٣٠٨ هـ / ١٨١٠ ـ ١٨٩٠ م)
وجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م)
والإمام محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م)
وعبد الله النديم (١٢٦١ ـ ١٣١٤ هـ / ١٨٤٥ ـ ١٨٩٦ م)
وعبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ ـ ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م)
ومحمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م)
وحسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩ م)
ومحمد الخضر حسين (١٢٩٣ ـ ١٣٧٧ هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٥٨ م)
ومصطفى كامل باشا (١٢٩١ ـ ١٣٢٦ هـ / ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م)
وطلعت حرب (١٢٩٣ ـ ١٣٦٠ هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٤١ م)
وسعد زغلول (١٢٧٣ ـ ١٣٤٦ هـ / ١٨٥٧ ـ ١٩٢٧ م)
ومصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ ـ ١٣٦٦ هـ / ١٨٨٥ ـ ١٩٤٦ م)
ومحمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ ـ ١٣٦٤ هـ / ١٨٨١ ـ ١٩٤٥ م)
وعبد العزيز جاويش (١٢٩٣ ـ ١٣٤٧ هـ / ١٨٧٦ ـ ١٩٢٩ م)
وأحمد حسن الزيات (١٣٠٢ ـ ١٣٨٨ هـ / ١٨٨٥ ـ ١٩٦٨ م)

وعبـــــد الجليـــل (١٣٠٨ ـ ١٣٩٨ هـ / ١٨٩١ ـ ١٩٧٨ م)
وعبـد الوهـاب خلاف (١٣٠٥ ـ ١٣٧٥ هـ / ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م)
ومحمـــــد حسين هيكل (١٣٠٥ ـ ١٣٧٥ هـ / ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م)
وعبـاس محمـود العقـاد (١٣٠٦ ـ ١٣٨٣ هـ / ١٨٩٩ ـ ١٩٦٤ م)
وعبد الحميد بن باديس (١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ / ١٨٨٧ ـ ١٩٤٠ م)
ومحمد الفاضل بن عاشور (١٣٢٧ ـ ١٣٩٠ هـ / ١٩٠٩ ـ ١٩٧٠ م)
وعلال الفاسي (١٣٢٦ ـ ١٣٩٤ هـ / ١٩٠٨ ـ ١٩٧٤ م)
وعلي مبارك (١٢٣٩ ـ ١٣١١ هـ / ١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ م)
وقاسم أمين (١٢٨٠ ـ ١٣٢٦ هـ / ١٨٦٣ ـ ١٩٠٨ م)
وزكي مبارك (١٣٠٨ ـ ١٣٧١ هـ / ١٨٩١ ـ ١٩٥٢ م)
وشكيب أرسلان (١٢٨٦ ـ ١٣٦٦ هـ / ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦ م)
وغيرهم .. وغيرهم من أعلام هذا التيار ..

وإذا كان تراث حقبة الجمود والتَّراجع في حضارتنا العربية الإسلامية ، قد كان بضاعة تيار التقليد للموروث .. وإذا كان النموذج الحضاري الغربي قد مثَّل منابع ومنطلقات تيار

التَّغريب .. فإن المنابع التي انطلق منها تيار الإحياء والتَّجديد قد تمثَّلت في :

● مبادئ الإسلام ، كما تمثَّلت في منابعه الجوهرية والنَّقية : البلاغ القرآني ، والبيان النَّبوي للقرآن الكريم ، كما تمثَّل في السُّنة النَّبوية الثابتة .

● وثوابت التراث العربي الإسلامي ، التي مثَّلت قسمات الهوية الحضارية للأمة ، والتي حفظت لأجيالها تواصلها الحضاري ووحدتها كأمة ، عبر الزمان والمكان .

● وكل ما أبدعه العقل الإنساني ، في مختلف الحضارات ، مما هو (ابن الدليل) كما تمثل في الحقائق والقوانين التي مثَّلت وتمثل العلوم التي لا تتغاير موضوعاتها بتغاير الحضارات والمعتقدات .. أي العلوم الموضوعية المحايدة ، التي هي (مشترك إنساني عام) متميز عن (العلوم الإنسانية) .. ومنها الثقافة .. التي تدخل في الخصوصيات التي تتمايز فيها الحضارات ..

تلك كانت المنابع الفكرية لتيار الإحياء والتَّجديد ..

وإذا نحن شئنا أن تكون إشاراتنا لأهم الملامح الفكرية لمشروع الإحياء والتَّجديد الذي صاغه هذا التيار ، وبَشَّر به ، ودعا إليه .. وإذا شئنا أن تكون إشاراتنا هذه موثقة وصادقة في التعبير عن حقيقة ملامح هذا المشروع .. فإننا نستطيع أن نتحدث بلسان أعلامه ، فنقول إنهم قد أرادوا مشروعاً تجديديّاً لا يقيم قطيعة مع التراث ، وإنما يتجاوز المتخلِّف منه ، ذلك الذي تجاوزه التَّطور .. ولا يقيم قطيعة مع الحضارات الأخرى ، وإنما يميِّز في عطائها بين (المشترك الإنساني العام) وبين (الخصوصيات) التي تتميز بها تلك الحضارات .. ولا يدير ظهره للواقع ـ حاضراً ومستقبلاً ـ فيهجره إلى الماضي ـ كما فعل تيار التقليد للموروث ـ أو إلى (الآخر الحضاري)ـ كما فعل تيار التغريب ـ وإنما أراد هذا التيار استلهام الموروث ، والاستعانة بالوافد الملائم ، كمنطلقات لإبداع جديد للواقع العربي الإسلامي الجديد .. فالإبداع هو الهدف والأساس والسبيل إلى الإحياء والتجديد ، في مذهب أعلام هذا التيار ..

● وإذا كان الإمام محمد عبده ـ وهو المهندس الأعظم لفكر

هذا التيار ـ قد حدَّد أهدافه العامة .. فإننا واجدوها : الإحياء والتَّجديد في ثلاثة ميادين :

« **الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة** ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقل من خلطه وخبطه ، لتتمَّ حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني . وأنه ـ أي الدين على هذا الوجه ـ يعدُّ صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتَّعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل ـ كل هذا أعدّه أمراً واحداً ـ ..

أما الأمر الثاني : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشأً أو مترجماً من لغات أخرى ، أو في المراسلات بين الناس ..

أما الأمر الثالث : فهو التَّمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. فالحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، ولا يردّه عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل .. » .

وإذا كان الإمام محمد عبده قد حدَّد ، في هذه الكلمات ، ميادين الإحياء والتجديد .. فإنه قد نبَّه على تميز هذا التيار ، عندما استطرد فقال : ولقد خالفنا في الدعوة إلى ذلك « رأي الفئتين العظيمتين اللتين يتركَّب منهما جسم الأمة :

أ ـ طلاب علوم الدين ، ومن على شاكلتهم ..

ب ـ وطلاب فنون هذا العصر ، ومن هو في ناحيتهم .. »[1] .

تلك هي ميادين الإحياء التي عمل فيها تيار التَّجديد ، المتميِّز عن تيارَي التقليد والتغريب .. وإذا كانت قد سبقت

---

(١) الأعمال الكاملة ، ٣١٨/٢ ، ٣١٩ .

إشارتنا إلى نقد الإمام محمد عبده لجناحي تيار التقليد للموروث ـ أبناء المؤسَّسات التعليمية الموروثة .. والنُّصوصيين ـ فإن الأفغاني يؤكِّد تميز هذا التيار عن تيار التَّغريب ، بحديثه عن الموقف من (علوم) الغرب ، ومن (ثقافة) الغرب ، وذلك عندما يعرض لما صنعه العثمانيون والمصريون في (التَّحديث على النمط الغربي) !.. فيقول : « لقد شيَّد العثمانيون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف من شبابهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه (تمدُّناً) ، وهو في الحقيقة تمدُّن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني !..

فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟!..

نعم ، ربما وجد بينهم أفراد يتشدَّقون بألفاظ (الحرية) و (الوطنية) و (الجنسية) وما شاكلها .. وسمّوا أنفسهم : (زعماء الحرية) .. ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدَّلوا هيئات ، المآكل والملابس والفرش والآنية ،

وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدّوها من مفاخرهم .. فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم !.. وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم .. وهذا جَدْعٌ لأنف الأمة ، يشوِّه وجهها ، ويحطّ بشأنها !..

لقد علَّمتنا التجارب أن المقلِّدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرُّق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ؟!..

إن أبا العلم وأمه هو الدليل ، والدليل ليس أرسطو بالذات ، ولا جاليليو بالذات .. والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل ..

وإن الظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التَّمسُّك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .. ولا ضرورة في إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية

الأخرى ، ولا ملجئ للشرقي في بدايته أن يقف موقف الأوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقراً[(١)] أعجزها وأعوزها !.. »[(٢)] .

● ويزيد مصطفى كامل باشا موقف هذا التيار من (الهوية) الحضارية وضوحاً وتحديداً ، عندما يحدد علاقة (الوطنية) بـ (الجامعة الإسلامية) وعلاقة حضارتنا بالحضارة الغربية .. فيقول : « إننا نريد أن تكون مصر للمصريين ، ونرفض قطعياً كل نير أجنبي ..

وإذا كنا نطلب إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية ، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات ، التي راجت بين العامة ، باسم الدين ، قلبت حقيقة هذا الدين ، فصار الجهل والتأخر والانحطاط ، وكل الآفات ، مما يلقى على الدين

(١) أي أذلها وصدعها ..

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، ص ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٥٣٣ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

وينسب إليه ، والدين منه براء . لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية ، لأنه لا سبيل إلى إبادة جيش الباطل ، الذي أُلِّف ونُظم باسم الدين ، إلا بالدين نفسه . فالتعليم الديني ليس فرضاً من الوجهة الدينية ، فحسب ، بل هو كذلك أيضاً من الوجهة الوطنية .

إن بثّ الحقيقة الدينية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتَّقرب من الشعوب الأخرى ، إذ لا تعصُّب مع علم ، ولا نُفْرةَ مع نور ورشاد ، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته ، وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم .

ونحن إذا اعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته ، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها ، واعتبرنا بعبر التاريخ ، وتركنا النزاع الذي أضرَّ بمصر والإسلام ، واجتنبنا كل افتراق وشقاق ، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع .. »[(١)] .

(١) مصطفى كامل : فقرات من خطبة في الإسكندرية في ٣ مارس سنة =

فتقليد الغرب شيء .. والأخذ من المدنية الغربية الفوائد والمنافع شيء آخر .. و « إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية مستحيل .. » .

● ويزيد الإمام محمد عبده هذه الحقيقة .. حقيقة ضرورة « إسلامية النهضة والإحياء والإصلاح » .. ويزيدها حسماً وتأكيداً ، عندما يقول : « إن الدين هو سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لا مندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوج المصلح إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً ..

وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله الثقة فيه ،

= ١٨٩٦ م .. وخطبة في الإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ م .. وخطبة في ذكرى تنصيب محمد علي باشا حاكماً على مصر ـ في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م ـ انظر كتابنا (الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل) ص ٨٧ ، ٩٥ ـ ٩٧ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م .

وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخفّ من إحداث ما لا إلمام به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟!.. »[(١)] .

● لكن محورية الإسلام في النهضة والإصلاح لدى هذا التيار ـ تيار الإحياء والتجديد ـ قد جاءت موقفاً متميزاً عن موقف المقلّدين للموروث ، أولئك الذين وقفوا عند تراث عصور التّراجع والتّخلف الحضاري .. وعن موقف النُّصوصيين ، أولئك الذين وإن كانوا قد طهّروا العقائد من البدع والخرافات ، إلا أن جمودهم عند حرفية النَّص قد جعلهم يهملون إعمال العقل في الوعي بمرامي النصوص وملابساتها ، ومقاصد الشريعة وحِكَمِها وغاياتها ..

ففي منهج تيار الإحياء والتَّجديد نجد « العقل : هو جوهر إنسانية الإنسان .. وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة[(٢)] .. وهو نقطة الافتراق التي ميَّزت الإنسان عن غيره من الحيوانات .. والتي جعلها الله محور صلاحه وفلاحه .. »[(٣)] .

---

(١) الأعمال الكاملة : ٢٣١/٢ .

(٢) المصدر السابق : ٤٢٨/٥ ، ٢٩٨/٣ .

(٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني : ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

وإذا كانت (الحكمة) : ثمرة من ثمرات العقل ، لأنها هي الإصابة في غير النُّبوة .. فإنها ـ أي الحكمة ـ في منهج هذا التيار : « هي مقننة القوانين ، وموضحة السُّبل ، وواضعة جميع النظامات ، ومعينة جميع الحدود ، وشارحة حدود الفضائل والرذائل ، وبالجملة ، فهي : قوام الكمالات العقلية والخلقية .. فهي أشرف الصناعات !.. »[١] .

● وليس مقام العقل هذا ـ في منهج هذا التيار ـ خاصّاً بالعمران الدنيوي وحده .. بل إن هذا هو مقامه وتلك هي مكانته في تحصيل الإيمان الديني أيضاً ؟!.. فإذا كان العقل هو أداة النظر والتَّدبُّر والتَّفكُّر .. وإذا كان الإيمان هو التَّصديق القلبي الذي يبلغ مرتبة اليقين ، فإنه « لا يقين مع التَّحرُّج من النظر ، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان ، طولها وعرضها ، وحتى يصل إلى الغاية التي يطلبها بدون تقييد .. فالله يخاطب ، في كتابه ، الفكر والعقل والعلم ، بدون قيد

(١) المصدر السابق : ص ٢٦٠ .

ولا حدّ .. والوقوف عند حدّ فهم العبارة مضرّ بنا ، ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات ..

والقرآن ـ وهو وحده المعجز الخارق ـ قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم .. فهو معجزة عرضت على العقل ، وعرفته القاضي فيها ، وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ونشر ما انطوى في أثنائها .. فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري ، فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع فكرك بصيحة إلهية ...

والمرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به .. فمن رُبّي على التسليم بغير عقل ، والعمل ، ولو صالحاً ، بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير ، كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه : أن يرتقي عقله ، وتتزكى نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ،

ويترك الشَّر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرّته في دينه ودنياه !.. »[١] .

● وفي الوقت الذي استعار فيه تيار التَّغريب مفهوم (الوطنية) الضيقة ، المناقض لوحدة الأمة الإسلامية ، ووحدة ديار الإسلام .. وجاهر أعلام هذا التيار ـ بلسان أحمد لطفي السيد باشا (١٢٨٩ ـ ١٣٨٣ هـ / ١٨٧٢ ـ ١٩٦٣ م) ـ بأن « الجامعة الإسلامية خرافة .. لا أثر لها ولا وجود .. وأن القول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين : قاعدة استعمارية تنتفع بها كل أمة مستعمرة تطمع في توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حولها من البلاد .. وأن المصري : هو الذي لا يعرف له وطناً غير مصر .. »[٢] !!..

وهو المفهوم الذي يبرر التجزئة الاستعمارية الغربية لوطن العروبة وعالم الإسلام .. فإن تيار الإحياء والتجديد ـ الذي

(١) الأعمال الكامل للإمام محمد عبده : ١٥١/٣ ، ٢٧٩ ـ ٢٨١ ، ٤١٤/٤ .

(٢) أحمد لطفي السيد (قصة حياتي) : ص ٦٧ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ . طبعة القاهرة ـ دار الهلال ـ سنة ١٩٨٢ م .

بعث الوطنية ـ كدائرة انتماء ـ على يد مصطفى كامل باشا ـ قد نبَّه على خطر هذا المفهوم الغربي والضَّيق للوطنية ، خطره على وحدة الأمة الإسلامية .. فكتب الإمام محمد عبده يقول : « لقد انحلَّت الروابط الملّية ، بل تقطع أكثرها ، حتى كادت الأمة تخرج عن كونها أمة حقيقية متكافلة بالمصالح الاجتماعية والتعاون على الأعمال المشتركة التي تحفظ وحدتها . وطفق بعض هؤلاء (المتمدّنين) الذين قطعوا روابطهم بأيديهم يفكرون في جعل الرابطة الوطنية لأهل كل قطر بدلاً من الرابطة الملّية الجامعة لأهل الأقطار الكثيرة ، فلم يفلحوا ، ولكن أثَّر كلامهم أردأ التأثير !.. »[١] .

● وبينما رأى تيار التَّغريب ـ بسبب التقليد لمناهج الغرب ـ في إسلامنا : مسيحية ، تدع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .. وفي الخلافة الإسلامية : دولة الكهانة التي استبدَّت باسم السماء والتَّفويض الإلهي والسلطة الدينية .. نَبَّه تيار الإحياء والتَّجديد على تميُّز الإسلام في هذا الميدان .. ميدان

(١) الأعمال الكاملة : ٦٨٣/٤ .

علاقة الدين بالدولة .. « فليس في الإسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة .. وهي سلطة خوَّلها الله لكل المسلمين ، أدناهم وأعلاهم .. وليس للخليفة ، أو القاضي ، أو المفتي ، أو شيخ الإسلام أية سلطة دينية .. بل إن كل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية !.. فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه .. »[١] .

لكن رفض الإسلام هذا للسلطة الدينية ، ليس هو موقف المسيحية التي تقف عند حدود الرسالة الروحية ، وخلاص النفوس ، ومملكة السماء .. وليس العلمانية الغربية التي تفصل الدين وتعزل أحكامه عن الدولة والعمران وعلومها وشؤونها .. لأن الإسلام دين ودولة .. بلاغ وتنفيذ .. وبعبارة الإمام محمد عبده ، أيضاً : « فإن الإسلام : دين وشرع ، فقد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً .. ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضي بالحق ، وصون نظام الجماعة ، وتلك القوة لا يجوز أن تكون

(١) المصدر السابق : ١٧٥/٢ ، ٢٨٥/٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

فوضى في عدد كثير ، فلا بدَّ أن تكون في واحد ، وهو السلطان أو الخليفة .. وليس من أصول الإسلام أن يدع ما لقيصر لقيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده وعمله .. فكان الدين بذلك عند أهله : كمالاً للشخص ، وأُلْفَةً في البيت ، ونظاماً للملك .. »[1] .

فنحن هنا ، في فكر هذا التيار ، أمام مشروع للإحياء والنهضة والتَّجديد ، يدعو أعلامه إلى : (سلفية ـ عقلانية ـ مستنيرة) في فهم الدين ، على النحو الذي فهمه منه (الجيل المؤسس) ـ جيل الصحابة والتابعين ـ قبل ظهور الخلاف الذي افتعلته المؤثرات الأجنبية ..

● وإلى (عقلانية ـ إسلامية) متميزة عن عقلانية الغرب ـ اليونانية .. والحديثة ـ .. عقلانية تقرأ النقل في ضوء العقل ، وتضبط العقل بالنقل فيما لا يستقل بإدراكه .. وتؤسس الإيمان الديني على النظر العقلي ، فتنقذ الإنسان من النصوصية التي لا عقل لأهلها .. ومن الوضعية التي لا تؤمن إلا بثمرات الحواس والمحسوس ..

(١) المصدر السابق : ٢٨٧/٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

● وإلى تـأسيس النهضـة على الإسـلام .. وعلى ثمرات إبـداع الحضـارات الأخرى فيما هـو مشترك إنسـاني عـام ، في ميـادين العلوم التي حقائقها وقوانينها موضوعية محايدة ، لا تتأثر بتغـاير العقائد والحضـارات ، لأنهـا ابنـة الـدليل ، تلتمس حيث يوجـد الدليل ..

● وإلى بعث الروح الوطنية ، والروابط القوميـة ، كلبنـات ودوائر انتماء في البنـاء الأعمّ والأشمـل ، الـذي هـو وحـدة الأمـة والملّة في المصالح والحضارة والاعتقاد ..

● وإلى شمولية الإسلام ـ بالوسطية ـ لمختلف جوانب الحيـاة الإنسانية والعمران البشري .. الدين والدولـة .. الفرد والطبقـة والأمة .. الوطنية والقومية والجامعـة الإسلاميـة والإنسـانيـة .. الروح والجسـد .. الـدنيـا والآخرة ... إلخ .. إلخ .. على النحو الذي يعصم نهضة الأمـة ومشروعهـا الحضـاري من الانشطـاريـة والثنـائيـة التي مـزّقت وتمـزّق العقـل الغربي حيـال هـذه الثنائيات ..

تلك هي أبرز ملامح مشروع الإحياء والتجديد ، الذي دعا إليه ، وجاهد في سبيل تطبيقه ، هذا التيار ..

وإذا كان (العقد ـ المنظم) لهذا التيار قد انفرط بعد (الحزب الوطني الحرّ) و (جمعية العروة الوثقى) ـ وهما التَّنظيمان اللذان قادهما جمال الدين الأفغاني .. وانفرط عقدهما بوفاته ـ فإن أعلام هذا التيار قد أقاموا العديد من التنظيمات .. والمؤسسات .. والمنابر الفكرية .. وأسهموا في الإحياء والتجديد بمختلف السُّبل والوسائل .. فمن (دار العلوم) .. إلى (مدرسة القضاء الشرعي) .. إلى تيار مجلة (المنار) .. إلى جمعية (أُم القرى) .. إلى (جماعة العلماء الجزائريين) .. إلى العديد من الأحزاب .. والصحف .. والمجلات .. ودور النَّشر .. والجامعات .. والكتب .. التي مثَّلت القنوات التي عبرت منها معالم هذا المشروع الحضاري إلى عقول قطاع واسع وأفئدة جمهور عريض من أبناء هذه الأمة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام ..

صنع هذا التيار ذلك ، رغم الحصار والتَّضييق اللذين فرضا

عليه من تياري التقليد والمحاكاة .. التقليد للموروث .. والمحـاكاة للتغريب !..

● فعبـد الله النـديم : يرفـع رايـة الـدفـاع عن العربيـة .. ووحدة الأمة .. وتميّز تقاليدها .. في مواجهة الـذين انطلقوا .. بعـد الهزيمـة العسكريـة لجيش الثـورة العرابيـة يقلّـدون الغـزاة المنتصرين !..

● وقـاسم أمين : يـدافع ـ في (الرَّد على داركور) ـ عن تميّز التَّمدن الإسلامي عن التَّمـدن الغربي .. ويضبـط ـ في (تحرير المرأة) ـ حريتها بالضوابط الإسلامية ـ وذلك قبل أن يميل ـ في (المرأة الجديدة) ـ إلى قدر من التَّغريب ..

● وسعد زغلول : الذي قاد ثورة من أعظم ثوراتنا الوطنيـة في العصر الحـديث ـ يرفض العلمـانيـة الغربيـة ، ويتعجب من (جهل) الشيخ علي عبـد الرزاق (١٣٠٥ ـ ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦ م) الـذي زعم في كتـابـه (الإسـلام وأصـول الحكم) أن الإسـلام (رسـالـة روحيـة) لا عـلاقـة لهـا بسيـاسـة الـدولـة

والعمران .. فيكتب قائلاً : لقد قرأت كتاب الإسلام وأصول الحكم بإمعان ، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب . فعجبت ، أولاً ، كيف يكتب عالم ديني بهذا الأسلوب في مثل هذا الموضوع ؟!..

لقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم ، فما وجدت ممن طعن منهم في الإسلام حِدَّة كهذه الحِدَّة في التعبير ، على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق ..

لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه ، بل بالبسيط من نظرياته ، وإلا فكيف يدعي أن الإسلام ليس مدنيّاً ؟! ولا هو بنظام يصلح للحكم ؟؟!!..

فأية مدنيّة من نواحي الحياة لم ينصّ عليها الإسلام ؟ هل البيع ؟ أو الإجارة ؟ أو الهبة ؟ أو أي نوع آخر من المعاملات ؟؟!..

ألم يدرس شيئاً من هذا في الأزهر ؟ أو لم يقرأ أن أُمماً كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة كانت أنضر العصور ؟

وأن أُمماً لا تزال تحكم بهذه القواعد ، وهي آمنة مطمئنة ؟ فيكف لا يكون الإسلام مدنيّاً ودين حُكْم ؟!..

وأعجب من هذا ما ذكره في كتابه عن الزكاة !.. فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية ؟!.. والذي يؤلمني حقّاً ، أن كثيراً من الشُّبان الذين لم تقوَ مداركهم في العلم القومي ، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد ، سيتحيَّزون لمثل هذه الأفكار ، خطأ كانت أو صواباً ، دون تمحيص ولا درس ، ويجدون تشجيعاً على هذا التَّحيُّز فيما تكتبه جريدة (السياسة) وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ علي عبد الرازق ، ومن تسميتها له بالعالم المدقِّق ، والمصلح الإسلامي ، والأستاذ الكبير ... إلخ ..

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية الرأي وبين قواعد الإسلام الراسخة ، التي تصدّى كتابه لهدمها !.. »[(١)] .

(١) محمد إبراهيم الجزيري (سعد زغلول : ذكريات تاريخية) ص ٩١ ـ ٩٣ . طبعة كتاب اليوم ـ القاهرة . وانظر كتابنا (معركة الإسلام وأصول الحكم) ص ١٤٩ ـ ١٥١ . طبعة دار الشروق ـ القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

لقد كتب سعد زغلول هذا الكلام في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ م ـ أي قبل وفاته بعامين ـ فأثبت به وفيه أنه قد ظلّ طوال حياته الفكرية الابن البارّ لتيار الإحياء والتجديد ، والتلميذ الوفي لفكر جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده ..

● أما الشيخ مصطفى عبد الرازق : فإنه ينهض بعبء التأسيس لذلك التّحول الذي أحدثه هذا التيار في حقل الدراسات الفلسفية ، وذلك عندما يقدم في كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) نظرية تميّز الفلسفة الإسلامية عن فلسفات الأمم الأخرى .. وكيف أن عقلانية الأمة الإسلامية قد تجلّت فيما أبدعه المسلمون في (أصول الدين) فأرسى بذلك معلماً من معالم التّميز للمشروع الحضاري الذي أبدعه تيار الإحياء والتّجديد .

● أما رشيد رضا : فهو الذي حفظ الاستمرارية لفكر هذا التيار قرابة أربعة عقود .. تحوّل فيها (تفسير المنار) إلى معلم جديد لمنهج جديد في تفسير القرآن الكريم .. وغدت فيها مجلة (المنار) منارة التجديد والإحياء على امتداد عالم الإسلام ..

● وكان الخضر حسين : فارس المعارك الفكرية لهذا التيار ضدّ المتغربين ـ وخاصة في كتابيه : (نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) و (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) .. كما كان فارس التَّجديد بما كتبه في الشريعة .. واللغة .. وسبل الإصلاح .. وفارس الجهاد الوطني ، بالمركز الذي أقامه ـ بالقاهرة ـ لدعوات وحركات التحرير الوطني الإسلامية ، خاصة في بلاد الشمال الإفريقي ..

● أما حسن البنا : فإنه الإمام الذي انتقل بمشروع النهضة هذا من إطار الصفوة المثقفة والنُّخبة المفكِّرة إلى أحضان الأمة ، وأيدي الجماهير .. فلقد جاء في حقبة عمت فيها بلوى الاحتلال الأجنبي ، والتَّشرذم القطري ، والهيمنة التَّغريبية كل أنحاء ديار الإسلام .. فكان لا بدَّ من أن تحمل الأمة ـ وليس فقط علماؤها ـ مسؤولية التربية والإعداد والاستعداد لمواجهة التَّخلف الموروث والاستلاب الحضاري بهذا المشروع الحضاري الجديد .. مشروع الإحياء والتَّجديد .. فقدّم الرجل في هذا الميدان أعظم

ما يمكن أن يقدمه مجدِّد مجاهد استشهد وهو لم يتجاوز الأربعين من عمره إلا بسنوات ثلاث ؟!..

تلك إشارات إلى طرف من معالم المشروع الحضاري لتيار الإحياء والتَّجديد .. ونماذج من مواقع نفر من أعلامه .. آثرنا فيها التَّمثيل .. فلم نعرج على ابن باديس .. والنهضة التي أعاد بها الجزائر إلى العروبة والإسلام .. ولا على الكواكبي .. وإنجازاته في الحرية ، والعروبة ، ومعالجة أسباب التَّخلف ووسائل النهوض .. فالحديث عن هذا التيار حديث (مجلدات) لا (سطور) في صفحات[1] !..

و .. من التغريب إلى التَّجديد :

ورغم الإمكانات الهائلة التي سخَّرتها السلطات الاستعمارية لدعم تيار التغريب ورعاية مسيرته ، والتي وضعت أغلب

(١) انظر كتبنا : (مسلمون ثوّار) و (الإمام محمد عبده) و (جمال الأفغاني) و (رفاعة الطهطاوي) و (عبد الرحمن الكواكبي) و (علي مبارك) و (قاسم أمين) و (تيارات الفكر الإسلامي) و (الصحوة الإسلامية والتَّحدي الحضاري) . طبعة دار الشروق ـ القاهرة .

مؤسسات التعليم والتَّثقيف والإعلام تحت هيمنة نظرياته ورجالاته .. ورغم الحصار الذي ووجه به تيار الإحياء والتَّجديد من أهل الجمود والتقليد ومن المتغربين جميعاً .. إلا أن الواقع الفكري الثقافي ـ بسبب الحاجة الحضارية للمشروع التجديدي ـ وبسبب إفلاس أهل التقليد وعجزهم عن تقديم المشروع الحضاري الذي ينير للأمة طريق النهضة والتَّحرر .. وبسبب فجاجة الرؤى المتغربة والرفض التلقائي والطبيعي الذي تقابل به من عقل الأمة ووجدانها ، اللذين لم تفسد فطرتها بسبب من هذه العوامل ، وغيرها ، تخلقت في الواقع الثقافي ظاهرة هامة وذات دلالة وملفتة للأنظار .. ألا وهي : تراجع عدد كبير من الأعلام الذين تغربوا عن التَّبشير بالنموذج الحضاري الغربي ، بعد أن سلكوا هذا السبيل ، كاجتهاد خاطئ ، وانخراطهم ، في مرحلة نضجهم الفكري ، بتيار الإحياء والتجديد ..

وهذه الظاهرة ـ التي لا تزال قائمة ومستمرة ـ والتي شملت وتشمل العديد من الذين سلكوا طريق التغريب ـ بشقَّيه : الليبرالي والشمولي ـ تقوم شاهدة على حقيقة تعلمنا بضرورة

التَّميز في الذين دعوا ويدعون إلى تبنِّي النموذج الحضاري الغربي ، بخيره وشرِّه ، بحلوه ومرِّه ، بخطئه وصوابه ، بإنسانياته وخصوصياته وبعلومه الموضوعية والمحايدة .. تعلمنا ضرورة التمييز في هذا الموكب بين الذين تغرَّبوا (عمالة ـ فكرية) للغرب الاستعماري ، بسبب كراهيتهم للإسلام ، وسعيهم الواعي والمخطط لإزاحة صبغته عن مشروع النهضة وفلسفة الحاكم والعمران ، وبين الذين تغرَّبوا بسبب اجتهادهم الخاطئ ، الذي دفعهم إلى الظَّن بأن استعارة النموذج الغربي هو السبيل إلى القوة والنهضة التي تحرر أوطاننا من أغلال الاستعمار والهيمنة الغربية .. لقد رأوا الإسلام في الصورة التي قدمها له تيار الجمود والتقليد ، فأيقنوا بعجز هذه الصورة عن أن تكون السبيل للتَّحرر من الهيمنة الغربية ، وعندما وازنوا بين هذه الصورة وبين النموذج الغربي ، بهرهم الغرب وأدهشتهم إنجازاته .. وخدعوا بزعم الغرب وحدة الحضارة ، فحسبوا أن التَّحضُّر والتَّقدم لا يقتضي مشروعاً حضاريّاً متميِّزاً ، وإنما يقتضي اللحاق بالغرب ، والاشتراك معه في حضارته ، التي صدقوا أنها الحضارة

(الإنسانية) و (العالمية) .. فكان أن أعلنوا ـ بلسان واحد من أعلامهم ـ : « أن السبيل .. واضحة بيِّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي واحدة فذّة ليس لها تعدُّد ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرّها ، حلوها ومرّها ، ما يُحب منها وما يُكره ، وما يُحمد منها وما يُعاب »[1] !

لكن عدداً من هؤلاء الأعلام ، الذين قادهم الاجتهاد الخاطئ إلى هذا الموقع الفكري ، قد أدركوا ، بالتجربة ، أن (بذور التغريب) غير صالحة للإنبات في (تربتنا الحضارية) وأن (فطرة الأمة) ، التي كونها تراثها المتميز وتاريخها الحضاري المغاير لنظيره الغربي ، إنما ترفض التغريب رفض الجسد للجسم المقحم عليه والغريب عنه .. فلما نظروا صورة الإسلام ، كما عرضها تيار الإحياء والتجديد ، وجدوا ضالتهم المنشودة فيه ، فكانت عودتهم عن التَّغريب إلى الإحياء والتَّجديد ..

---

(١) د . طه حسين (مستقبل الثقافة في مصر) : ٤٥/١ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

وإذا نحن شئنا استقصاء الأعلام الذين كونوا هذه الظاهرة ، طال بنا الحديث ، وخرج عن ما يقتضيه المقام .. ولذلك فإننا سنقف هنا عند الإشارة إلى نماذج ثلاثة ، علا نجمهم في التيار المتغرِّب .. ثم راجعوا فكرهم ومواقفهم ، فكانت دعوتهم ـ الصريحة أو الضمنية ـ المصحوبة بالنقد الشجاع للمسيرة الماضية .. والخالية من هذا النقد الشجاع .. كانت عودتهم عن طريق التَّغريب إلى تيار الإحياء والتَّجديد ..

● **فالشيخ علي عبد الرازق** (١٣٠٥ ـ ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٧ ـ ١٩٦٦ م) : قد خرج على الناس في سنة ١٩٢٥ م بكتابه (الإسلام وأصول الحكم) .. فأثار أكبر معركة فكرية في تاريخنا الحديث .. وغدا كتابه هذا أهم (وثيقة) في يد (العلمانيين) الذين يريدون للشرق أن يعزل الإسلام عن الدولة والمجتمع كما عزل الغرب المسيحية عنهما ..

ففي هذا الكتاب يقول عالم أزهري ، وقاض شرعي ـ لأول مرة في تاريخ العلم الإسلامي والعلماء المسلمين ـ إن الإسلام دين ورسالة روحية ، لا دولة فيه ولا سياسة .. وإن الخلافة

الإسلامية كانت ـ كالكهانة الغربية ـ استبداداً وطغياناً باسم الدين .. وإن نبي الإسلام ﷺ ، لم ينشئ دولة ولم يقم حكومة ، ولم يصنع إلا ما صنعه الرسل السابقون : البلاغ ، المجرد عن التنفيذ !.. فعنده : أن محمداً ﷺ ، ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه ﷺ ، لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها . ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرُّسل ، وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ، ولا داعياً إلى ملك .. وظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي ﷺ لم يكن له شأن في الملك السياسي ، وآياته متضافرة على أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان .. إنما كانت ولاية محمد ﷺ على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم .

هيهات هيهات ، لم يكن ثمة حكومة ، ولا دولة ، ولا شيء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء .. لم يكن هناك ترتيب حكومي ، ولم يكن ثمة ولاة ولا قضاة

ولا ديوان .. إلخ . كانت زعامة دينية .. ويا بعد ما بين السياسة والدين ... »[١] .

لكن هذا الشيخ ، الذي استفزَّ الضمير المسلم كما لم يستفزّه عالم ديني عبر التاريخ .. والذي افترى على الإسلام ورسوله فرية لم يفترها مستشرق حاقد أو جاهل .. سرعان ما عاد ـ بالتدريج ، ودون إعلان صريح ـ إلى العدول عن فرية أن الإسلام مجرد رسالة روحية لا دولة فيها ولا سياسة ولا حكم ولا تنفيذ .. فأجاب ـ بعد أن حاكمته وأدانته (هيئة كبار العلماء) ـ وبعد أن فنَّد زعمه ونقض دعواه عدد كبير من أعلام العلماء ـ أجاب على سؤال الجماعة من العلماء ، فقال : « إن الإسلام دين تشريعي ، وإنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده ، وإن الله خاطبهم جميعاً بذلك »[٢] .. وذلك بعد أن كان قد زعم في كتابه أن الواجب هو إقامة أية حكومة : بلشفية أو رأسمالية ، ديمقراطية أو استبدادية !..

(١) الإسلام وأصول الحكم : ص ٤٨ ـ ٨٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

(٢) صحيفة (السياسة) ـ اليومية ـ العدد ٨٨١ ، بتاريخ ١ ـ ٩ ـ ١٩٢٥ م .

وفي مرحلة تالية من مسيرته الفكرية ـ سنة ١٩٥١ م ـ دار حوار بينه وبين الدكتور أحمد أمين (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣ هـ / ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤ م) حول دواء ما وصل إليه المسلمون من جمود ، فقال في هذا الحوار : « إن دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديماً من أن رسالة الإسلام روحانية فقط ، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل .. إلخ » .

فلما نشر أحمد أمين ذلك ـ في مجلة (رسالة الإسلام)[1] ـ علق علي عبد الرازق على هذه العبارة ـ عبارة : « إن رسالة الإسلام روحانية فقط » ـ فقال : « ما أرى إلا أن هناك خطأ في التعبير جرى به لساني في المجلس الذي كنا نتجادل فيه ونستعرض حال المسلمين .

وما أدري كيف تسرَّبت كلمة روحانية الإسلام إلى لساني .. يومئذ ، ولم أرِد معناها ، ولم يكن يخطر لي ببال !..

بل لعله الشيطان ألقى في حديثي بتلك الكلمة ليعيدها

(١) عدد أبريل سنة ١٩٥١ م .

جذعة[1] تلك الملحمـة التي كانت حول كتـاب (الإسلام وأصول الحكم) .. وللشيطـان أحيـانـاً كلمات يلقيهـا على ألسنـة بعض الناس ... »[2] ؟!

هكذا تراجع علي عبد الرازق عن (البدعـة) التي لم يسبقـه إليها عالم من علماء الإسلام .. بدعة (علمنـة الإسلام) .. وبقي أن يعي ذلـك تيـار التغريب ، الـذي يتمسـك حتى الآن برأي تراجع عنـه صـاحبـه ، ويلعب بـورقـة سحبهـا صـاحبهـا منـذ عشرات السنين :

● أما الـدكتور طـه حسين : (١٣٠٦ ـ ١٣٩٣ هـ / ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣ م) : فلعل أشدّ آرائه المتغربـة استفزازاً للعقل المسلم كانت تلـك التي حـوتهـا صفحـات من كتـابيـه (في الشعر الجـاهلي) ـ الـذي صـدر سنـة ١٩٢٦ م ـ و (مستقبـل الثقـافـة في مصر) ـ الذي صدر سنة ١٩٣٨ م ..

---

(١) جذعة : أي جديدة .. مرة أخرى .
(٢) انظر مقاله في مجلة (رسالة الإسلام) ـ عدد مايو سنة ١٩٥١ م .

فهو في الكتاب الأول ـ (في الشعر الجاهلي) ـ يعرض لقضية من قضايا النقد الأدبي ـ قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ـ وهي قضية تكلم فيها قدماء ومحدثون ، عرب ومستعربون .. ولا علاقة للخلاف حولها بمقدسات الدين وعقائد الإسلام ..

لكنه ـ في هذا الكتاب ـ بعد أن تحدث عن افتقار أغلب الشعر الجاهلي إلى الصدق ـ صدق الثبوت ـ الذي يجعله المصدر الثقة في وصف وتصوير الحياة الجاهلية ، تحدث عن القرآن الكريم حديثاً طيِّباً قال فيه : « إن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلي . ونصّ القرآن ثابت لا سبيل إلى الشَّك فيه »(١) ، لكنه قد عاد فجمح به الفكر واشتطَّ منه القلم عندما سطر نحواً من ثمانية وعشرين سطراً ، رفض فيها تصديق إخبار القرآن عما أخبر به حول :

أ ـ علاقة الإسلام بملّة إبراهيم ، عليه السلام .. والحنيفية والحنفاء ..

---

(١) في الشعر الجاهلي : ص ١٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

ب ـ وقصة بناء الكعبة ورفع قواعدها بواسطة إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام ..

جـ ـ وأخبار الرحلة الحجازية لإبراهيم، عليه السلام[1] ..

وبعد الضجة الكبرى التي أثارتها هذه السطور، التي تشكك في القرآن، بعد أن قال كاتبها ـ وفي ذات الكتاب ـ : « إن نصّه ثابت لا سبيل إلى الشّك فيه » .. وبعد النَّقد والنَّقض والتَّفنيد الذي وجه إلى هذا الرأي تحديداً .. حذف الدكتور طه هذه السطور من كتابه، وأعاد النظر فيه، بالإضافة والتوثيق والضبط والتصحيح، وأعاد نشره تحت عنوان جديد ـ [في الأدب الجاهلي] ـ ..

فإذا علمنا أن الكتاب، في صورته الأولى، لم يصادر .. وأن النيابة العامة قد حفظت التحقيق مع المؤلف، دون توجيه أي اتِّهام إليه، كنا مطمئنين إلى ما نراه من أن حذف المؤلف لهذه السطور الثمانية والعشرين إنما كان عدولاً منه عن ذلك الرأي البالغ في الشذوذ حدَّ التناقض مع ما قطع به هو نفسه،

(١) المرجع السابق : ص ٨٠ ، ٨١ .

في ذات الكتاب ، من « أن القرآن هو أصدق مرآة للعصر الجاهلي ، وأن نصَّه ثابت لا سبيل إلى الشَّكّ فيه » ..

أما كتابه الثاني ـ (مستقبل الثقافة في مصر) ـ فلعل بعض صفحاته أن تكون أكثر أصوات التغريب علوّاً وصراحة ـ بعد كتابات سلامة موسى ـ !..

ففي هذا الكتاب يعلن طه حسين ما سبقه إليه سلامة موسى ، عندما يقول : « إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول .. »(١) .

ويتبنّى ما سبقه إليه علي عبد الرازق ، فيقول : « إن السياسة شيء والدين شيء آخر .. »(٢) .

ويدعو إلى الإلحاق والالتحاق الحضاري بالغرب ، بدعوى وحدة العقل المصري والشرقي مع العقل الغربي ، فكلاهما قد

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر : ١٦/١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

(٢) المرجع السابق : ص ١٧ .

صيغ صياغة يونانية ؟!.. فعنده أن العقل الإسلامي هو ـ كالعقل الأوربي ـ مردّه إلى عناصر ثلاثة :

« ـ حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وفن .
ـ وحضارة الرومان وما فيها من سياسة وفقه .
ـ والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحثّ على الإحسان .. »[١] .

وكما لم يغيّر الإنجيل من الطابع اليوناني للعقل الأوربي .. فكذلك القرآن ، لم يغيّر من الطابع اليوناني للعقل الشرقي ، لأن القرآن « إنما جاء متمّماً ومصدّقاً لما في الإنجيل »[٢] ؟!!..

ثم يخلص إلى أن يقول : وهكذا « كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا ، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، على اختلاف فروعها وألوانها .. »[٣] .

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢١ ، ٢٢ .
(٣) المرجع السابق : ص ٢٦ .

وكما حدث مع كتابه (في الشعر الجاهلي) .. فلقد ووجه هذا الكتاب بحملة كبيرة من النقد والنقض والتفنيد .. وأبرز معارضوه دور الدين واللغة في الوحدة السياسية للدول والقوميات .. وتحدَّثوا عن تميز الإسلام في العلاقة بين السياسة والدين .. وفنَّدوا مزاعمه حول يونانية العقل الشرقي .. ودحضوا افتراءه حول أن القرآن لم يصنع بالعقل الشرقي أكثر مما صنع الإنجيل بالعقل الأوربي .. إلخ ..

حدث جميع ذلك في الساحة الفكرية ، دونما مصادرة لرأي أو منع لكتاب ..

وإذا كان طه حسين لم يحذف هذه الصفحات من كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) ـ كما حذف السطور الثمانية والعشرين من كتابه (في الشعر الجاهلي) ـ.. فلأنه ـ في تراجعه عن هذه الآراء ـ قد صنع أكثر مما صنع في كتابه الأول .. فلقد أحجم عن إعادة طبع هذا الكتاب ـ (مستقبل الثقافة في مصر) ـ طوال حياته ، ودون جميع كتبه الأخرى ؟!.. وعندما سئل سنة ١٩٧١ م ـ عن هذه الآراء التي أثارت الجدل ، والتي

تضمنها هذا الكتاب ، أعلن ـ رغم كبريائه المتضخِّم ؟! ـ : أنها آراء تحتاج إلى إعادة نظر وتعديل وإصلاح .. فقال عن هذا الكتاب : « ده كُتِب سنة ١٩٣٦ م .. قُدُم قوي ، عاوز يتجدد .. ويجب أن أعود إليه ، وأصلح فيه بعض حاجات ، وأضيف .. »(١) .

وهكذا عاد طه حسين عن اجتهاداته الخاطئة ، التي وضعته في معسكر المتغربين .. لأنه كان صاحب اجتهاد ، أخطأ فيه فتغرب .. فلما أصاب عاد إلى مشارف تيار الإحياء والتجديد .. وهو مأجور في كل الأحوال .. فلم يكن في يوم من الأيام (عميلاً فكريّاً) كما كان الحال مع الذين كرهوا الإسلام فسعوا إلى التغريب محاولين زراعته في تربتنا الحضارية على أمل اقتلاع الإسلام !..

● أما الدكتور **محمد حسين هيكل** (١٣٠٥ ـ ١٣٧٥ هـ / ١٨٨٨ ـ ١٩٥٦ م) : فلقد كان النموذج الأكثر صدقاً وموضوعية وشجاعة في هذه الظاهرة .. ظاهرة العدول عن التغريب ،

---

(١) انظر حديثه هذا في صحيفة (الأهرام) عدد أول مارس سنة ١٩٧١ م .

كاجتهاد خاطىء ، إلى تيار الإحياء والتجديد ، الذي يقدم للأمة فكرها (الطبيعي) والقادر على إنارة طريقها إلى النهضة والانعتاق من هيمنة الحضارة الغربية ..

فلقد تحدث الرجل حديث صدق ، وأعلن في شجاعة عن الملابسات التي اكتنفت آراءه السابقة المتغربة ، وعن الأسباب الموضوعية للتَّحولات الفكرية التي تبنى بها الخيار الحضاري الإسلامي .. صنع ذلك ، وهو يحاور أصدقاء الأمس ، الذين أصبحوا ناقدين له وغامزين إياه بعدما حدث لفكره من تحولات ..

وإذا نحن شئنا أمثلة من هذه التجربة في التَّحول الفكري من (التَّغريب) إلى (التَّجديد) فإننا نقدم شهادة الرجل ، وبعباراته نفسها ، على التحولات التي حدثت لفكره في المقولات والقضايا الأساسية التي كان يطرحها ويبشر بها المتغرِّبون ، والتي ما زالت مطروحة في ساحة التغريب حتى الآن ؟!..

أ ـ فالرجل قد بدأ حياته متغرِّباً .. وكان موقعه من أحمد

لطفي السيد باشا هو موقع التلميذ من الأستاذ .. ولقد مارس النشاط الفكري المبكّر كاتباً في (الجريدة) ـ التي أصدرها ورأس تحريرها لطفي السيد ـ وهي المنبر الذي كان يبشر بالوطنية والقومية ، بمعناها الغربي ، فيرى ضرورة استقلال مصر عن محيطها العربي والإسلامي استقلالاً سياسيّاً وحضاريّاً ، على النحو الذي يحرِّرها من الاستعمار الإنجليزي ، ويلحقها في الوقت ذاته بالحضارة الغربية ..

بدأ هيكل في هذه المدرسة الفكرية .. فلما حدث له التَّحول الفكري ـ وهو في العقد الخامس من عمره ـ سنّ النّضج الفكري ـ كتب ناقداً وناقضاً للفكرة القومية ، بمعناها ومضمونها الغربي ، ومعلناً انتماءه إلى مفهوم الأمة الواحدة ، المؤسس على عقيدة التوحيد ، التي هي جوهر دين الإسلام .. كتب يقول :

« إن الفكرة الإسلامية ، المبنية على التوحيد ، تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات ، وتصوير الأمم وحدات متنافسة ، يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه » .

ولقد تأثَّرنا ، معشر أمم الشرق ، بهذه الفكرة القومية ، واندفعنا ننفخ فيها روح القوة ، نحسب أنا نستطيع أن نقف بها في وجه الغرب الذي طغى علينا وأذلّنا . وخيّل إلينا ، في سذاجتنا ، أنا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا ، وأن نستردَّ ما غصب الغرب من حرِّيتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية .

ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوي هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها ، وزادنا ما خيّم علينا من سُجُف الجهل إمعاناً في هذا النسيان .

على أن التوحيد ، الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا ، قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصوُّر الخطر فيما يدعو الغرب إليه ..

ولذلك لم يكن لنا مفرّ من العودة إلى تاريخنا نلتمس فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذلّ ، ولنتقي

الخطر الذي دفعت الفكرة القوميـة الغرب إليـه ، فـأدامت فيـه الخصومة بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلهه !..»[١] .

فهو ، هنا ، يحدِّد أن تبنِّيه ـ هو وأمثاله ـ للنموذج الغربي في القومية ، إنما كان اجتهـاداً خـاطئـاً ، ظنّوا أنـه السبيل إلى « أن نعيـد مجـد آبـائنـا ، وأن نستردّ مـا غصب الغرب من حرّيتنـا وما أهدر من كرامتنا الإنسانية » .. ويعلن أن الذي ساعـد على الخطـأ في هـذا الاجتهـاد ، هـو (بريـق حضـارة الغرب) و (السـذاجـة) التي عليهـا المتغربون ؟!.. ويقـول إن التَّحـول الذي حدث له ، من التغريب إلى التجـديـد ، إنمـا أعـان عليـه تلك (الفطرة) التي رسخها التوحيـد الإسلامي في أرواح أبنـاء الإسـلام .. وأن التماس مشروع إنهـاض الأمّـة من حضـارتهـا وعقيدتها ، إنما هو السبيل إلى الخروج من (الجمود المذلّ) ـ الذي عليـه تيـار التقليـد والجمـود ـ واتِّقـاء (الخطر الغربي) ـ الـذي يكرِّسه المتغرِّبون ـ !..

ب ـ وبالنسبة للعلمانيـة ، التي تفصل الـدين عن الـدولـة ،

(١) في منزل الوحي : ص ٢٢ ـ ٢٦ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

والتي بشَّر بها المتغرِّبون ـ لأنها قسمة أصيلة في مشروع النهضة الغربية ـ... كان الدكتور هيكل في سنة ١٩٢٥ م رئيس تحرير صحيفة (السياسة) ـ لسان حال حزب (الأحرار الدُّستوريون) ـ... ومن موقعه هذا قاد حملة الدفاع عن كتاب الشيخ علي عبد الرازق ـ (الإسلام وأصول الحكم) ـ ذلك الذي ادَّعى فيه علمانية الإسلام ، وخلوّه من أية علاقة بالدولة والحكم والسياسة والتنفيذ ، فهو عنده (رسالة روحية) و (يا بعد ما بين السياسة والدين) .. و (نبي الإسلام) ـ كما زعم صاحب هذا الكتاب ـ لم يُقِم دولة ، ولم يرأس حكومة ، ولم يؤسس ملكاً ، وإنما كان ، كالخالين من الرُّسل ، مجرد مبلّغ لا علاقة له بالتنفيذ !..

كان الدكتور هيكل ، في سنة ١٩٢٥ م ، قائد حملة الدفاع عن هذه العلمانية .. فلما حدث له التَّحول الفكري .. وقدم للناس ـ في سنة ١٩٣٥ م ـ كتابه (حياة محمد) ـ نقض فيه مرتكزات العلمانية من الأساس ، وأوضح تميز الإسلام عن المسيحية ، واختلاف الإنجاز المحمدي في السياسة والدولة عن

عيسى ، عليه السلام ، وغيره من الرُّسل الخالين ، وضرورة الرؤية المتميزة للمسيرة المتميزة لحضارة الإسلام في هذا الموضوع .. موضوع العلاقة بين الدين والدولة .. فكتب يقول : « لقد أقام محمد دين الحق ، ووضع أساس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادة العالم .

والدين والحضارة اللذان بَلَّغهما محمد للناس ، بوحي من ربّه ، يتزاوجان ، حتى لا انفصال بينهما .. وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية : أي بين الكنيسة والدولة ، فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وفي اتجاه تاريخه .. »(١) .

فهو هنا يجعل الحضارة الإسلامية والدين الإسلامي بلاغاً إلهيّاً إلى الرسول ﷺ ، ويؤكد أن النَّبي ، كما أقام الدين ، فلقد وضع أساس الحضارة ، وأنهما ، لذلك ، « لا انفصال بينهما » .. كما ينبّه على تميُّز التاريخ الإسلامي عن تاريخ الغرب في العلاقة بين الدين والدولة .. الأمر الذي يجعل من السفاهة الفكرية

(١) حياة محمد : ص ٥١٦ ، ٥١٩ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٨١ م .

استعـارة حـلّ غربي ـ هـو العلمـانيـة ـ لمشكلـة لم يعرفهـا الشرق ـ وهي الكهانة واستبداد الكنيسة بالدولة والسلطة الزمنية ـ...

جـ ـ ثم يقدم لنا موقفاً نقـديّـاً متكاملاً للمرحلـة التي تغرب فكره فيها .. ملابسات هذا التَّغرب .. وأسباب التَّحول عنـه إلى أحضان حضـارة الإسلام .. فيقول : « لقـد خُيِّل إليَّ زمنـاً ، كما لا يـزال يُخَيَّـل إلى أصحــابي ، أن نقـل حيــاة الغرب العقليـــة والروحية هو سبيلنـا إلى النهوض والتَّقـدم .. فحـاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنويـة والروحيـة ، لنتَّخـذهـا جميعـاً هدى ونبراساً .

ولكنني أدركت ، بعد لأي ، أنني أضع البذر في غير منبتـه ، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحياة ..

وما أزال أشـارك أصحـابي في أنـا مـا نزال في حـاجـة إلى أن ننقـل من حيـاة الغرب العقليـة كل مـا نستطيـع نقلــه . لكنني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن مـا في الغرب منهـا غير صـالـح لأن ننقلـه . فتـاريخنـا الروحي غير تـاريخ

الغرب ، وثقافتنا الروحيـة غير ثقـافتـه . خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرّته (البابوية) المسيحية منذ عهـدهـا الأول ، وبقي الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير ..

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية للنهوض بهـذا الشرق ، وبيننا وبين الغرب في التـاريخ وفي الثقـافـة الروحيـة هذا التفاوت العظيم ؟!

لا مفرَّ ، إذن ، من أن نلتمس في تـاريخنـا وفي ثقـافتنـا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحيـاة الروحيـة ، نحيي بهـا ما فتر في أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا ..

هذا كلام واضح بيّن . ومن عجب أن يخفى على أصحـابي ، فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم عليَّ !.

ولكن ، لا عجب ، فقـد خفي هـذا الكلام عني سنوات ، كما لا يزال خفيّاً عن كثيرين منهم !... »[١] .

هنا ، يقدِّم الدكتور هيكل وثيقة في الموضوعيـة الفكريـة ،

---

(١) في منزل الوحي : ص ٢٢ ـ ٢٦ .

وفي الشجاعة الفكرية جديرة بأن تكون موضوع دراسة ونموذجاً للاقتداء .. وهي وثيقة ما نظن أنها في حاجة إلى تعليق !..

د ـ ولا ينسى الرجل أن يحدثنا عن تجربة أخرى له ، توسطت بين مرحلتي التغريب والتجديد .. فلقد ظن ـ بعد أن تيقّن من استحالة اتّخاذ النموذج الغربي مشروعاً لنهضتنا ـ ظنّ أن (النموذج الفرعوني) القديم ـ وهو تراث مصري ـ قد يكون صالحاً للبعث ، كمشروع للنهضة المصرية المنشودة .. فبشّر ـ مع آخرين ـ بالفرعونية .. ثم اكتشف أنها ، هي الأخرى وهم من الأوهام ، فلقد غدت تاريخاً يدرسه المتخصّصون ، ومتاحف تعين على الدراسات الحضارية والتاريخية للقدماء .. على حين قد انطبع حاضر الأمة وعقلها ووجدانها بطابع جديد ، وصيغا صياغة جديدة ، قوامها مقومات الإسلام .. فكتب الرجل عن هذا المنعرج من منعرجات رحلته الفكرية يقول :

« ... ولقد انقلبتُ ألتمس في تاريخنا البعيد ، في عهد الفراعين ، موئلاً لوحي هذا العصر ، ينشأ فيه نشأة جديدة ،

فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة .

ورَوَّأْتُ[(١)] فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرِّك النفوس وتجعلها تهتزّ وتربو ، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين ... »[(٢)] .. ـ وهو هنا يتبنّى موقف محمد عبده ـ الذي أشرنا إليه ـ حول : أن الإسلام هو سبيل الإصلاح .

هـ ـ ولذلك .. خلص الدكتور هيكل ، وهو يتحدث عن هذا التَّحول الفكري ، الذي انتقل به من مواقع (تيار التَّغريب) ـ عبر دعاة (النزعة الفرعونية) ـ إلى مواقع تيار (الإحياء والتَّجريد) .. خلص إلى تقديم مفهوم عميق وموضوعي ومتميز لعلاقة (الأصالة المعاصرة) ..

---

(١) روّأ في الأمر تروئة ، وترويئاً : نظر فيه وتعقّبه ، ولم يتعجّل فيه .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٢ ـ ٢٦ .

فإذا كانت (الأصالة) هي المنابع الحضارية والقسمات الثوابت فيها ، والمميزة لها .. فإن (المعاصرة) لا تعني إضافة الحضارة الغربية المعاصرة إلى أصالتنا ، ليصبح (تاريخنا) الحضاري إسلامياً ، و (واقعنا وحاضرنا) الحضاري غربيّاً .. وإنما (المعاصرة) ـ ومعناها : التعامل مع العصر ـ لا بدَّ لها من أن تتميَّز ذات التَّميُّز الذي تميَّزت به (الأصالة) ، حتى تكون طبيعية ، ومقبولة ، ومتَّسقة مع الأصالة ، وحتى تحقق للأمة تميُّزها وتواصلها الحضاري ، فلا تكون أداة للمسخ والنسخ والتشويه ، وسبيلاً للانقطاع الحضاري ، والإلحاق والتَّبعية لحضارة أخرى ؟!..

لقد خلص الدكتور هيكل إلى هذه المعاني لمصطلحات (الأصالة) و (المعاصرة) ـ وهي التي لا تزال غائبة عن كثيرين ؟! ـ.. فكتب يقول :

« إن أمة لا يتَّصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضلّ السبيل . وإن الأمة التي لا ماضي لها لا مستقبل لها .

ومن ثم كانت الهوة التي ازدادت عمقاً بين سواد الأمم في الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتَّوجه وجهة الغرب بكل وجودنا ، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية ، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته .. والحياة المعنوية هي قوام الوجود الإنساني للأفراد والشعوب ..

لذلك ، لم ألبث حين تبيَّنت هذا الأمر ، أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية .. فأين هذا من تملُّق الجمهور أو متابعته التماساً لرضاه .. كما يزعم الذين يغمزون ؟!.. »[1] .

☆ ☆ ☆

إنه شاهد صدق .. بل أعظم شواهد الصدق على هذه الظاهرة التي تخلَّقت في حياتنا الفكرية والثقافية .. ظاهرة تحوُّل أولئك الذين كان تغربهم اجتهاداً خاطئاً ـ عندما اكتشفوا خطأهم ـ وعندما نضجوا فكريّاً ، فأدركوا حقيقة الإسلام ، وحضارته ، وحقيقة العروة الوثقى بين عقيدة الأمة وحضارتها

(١) المصدر السابق : ص ٢٢ ـ ٢٦ .

وبين أي مشروع للنهضة ، يرجى منه أن يكون سبيلاً للتقدم والنهوض والإحياء .. عند ذلك ، حدث لهم هذا التَّحول العظيم من موقع (التغريب) إلى موقع (الإحياء والتجديد) تاركين في معسكر التغريب أولئك الذين اختاروه واعين وعامدين ومتآمرين .. لأنه ، بالنسبة لهم ، هو البديل للإسلام الذي يكرهون ؟!..

☆ ☆ ☆

ونحن نقول إن هذه التَّحولات قد مثَّلت (ظاهرة فكرية) ، ولم تقف عند (الحالات الفردية) .. لقد غدت تياراً مؤثِّراً ، يتطلَّع إليه الجمهور الراغب في التقدم انطلاقاً من منابع التراث .. وإلى هذه الحقيقة يشير الدكتور طه حسين ـ في بعض كتاباته ـ بالفرنسية ـ التي عرض فيها لدراسة هذه الظاهرة .. فيقول : « لقد نشأت فيما بين سنتي ١٩٣٣ و ١٩٤٦ م حركة أدبية كاملة ذات طابع ديني .. » .

ثم يعرض لإسهامات الدكتور محمد حسين هيكل في هذه

الحركة الجديدة ـ (ذات الطابع الديني) ـ من مثل كتاباته عن (حياة محمد) و (في منزل الوحي) وكتبه عن (أبو بكر) و (عمر) .. وغيرها .. فيؤكد على أن منهج هيكل هنا قد كان منهج مدرسة وتيار الإحياء والتجديد .. وبعبارته : « .. لقد طبّق حسين هيكل في كتابه ـ (حياة محمد) ـ منهج جمال الدين ومحمد عبده .. » .

ويشير إلى جمهور هذا التيار ، عندما يتحدّث عن الاستقبال الذي لقيه كتاب (حياة محمد) .. ودلالة هذا الاستقبال ، فيقول : « .. وقد لقي هذا الكتاب نجاحاً منقطع النظير في العالم العربي كله بين أصحاب الثقافة الرفيعة وعامة الجمهور على حدّ سواء . وهو ما أثبت أن الشعوب الإسلامية تطمح بحقّ إلى الحضارة الحديثة ، ولكنها لا ترغب مع ذلك في التّخلي عن التراث !.. »[1] .

---

(١) (طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقاً) ـ كتابات بالفرنسية ، جمعها وترجمها : عبد الرشيد الصادق محمودي . ص ٦٥ ـ ٦٦ . طبعة بيروت ، سنة ١٩٩٠ م .

وأخيراً ..

تلك هي الملامح الرئيسية للتيارات الفكرية التي تنازعت ثقافتنا العربية وفكرنا الإسلامي الحديث .. والتي كان تنازعها ـ ولا يزال ـ مصدر استنزاف طاقات الفرقاء المختلفين في الصراع الثقافي والفكري الداخلي ، فلم يستطع طرف الهيمنة وتحقيق السيادة للمشروع الذي يريد .. فكانت النتيجة أن أصبحت قوى الجميع واقفة ومتوقفة عند (السَّلب) أكثر من (الإيجاب) ، وكأنما الناتج هو (الصفر) من هذا الصراع ؟!..

● إن تيار التقليد ـ الذي يعتبر عقل الأمة (مملوكيّاً ـ عثمانيّاً) ـ وهو يهيمن على وجدان قطاع عريض من العامة ـ قد انسحب من (الحاضر) إلى (الماضي) يستفتي (الموتى) في ما هو جزئي وثانوي من شؤون حياة (الأحياء) .. ويكتفي ، في الشؤون العامة ، بإطلاق البخور للسلاطين ! وإسهاماته في

(الدراسات المستقبلية) لا تتعدى التأليف في (عذاب القبور) ؟!..

● إن تيار التغريب ـ الذي يعتبر عقل الأمة : (يونانيّاً ـ غربيّاً) ـ وخاصة بعد تعاظم تيار اليقظة والصحوة الإسلامية ـ يسفر عن وجهه الحقيقي ، مقترباً من خنادق الأعداء ، ساعياً إلى صبِّ حاضر الأمة ومستقبلها في مستنقع التبعية للحضارة الغربية ـ مكرراً ـ في ضحالة ـ مقولات التغريب التي سبق وتراجع عنها أصحابها في العقود الأولى من هذا القرن العشرين !..

● وأما تيار الإحياء والتجديد ـ القائل بأن عقل الأمة : عربي إسلامي ـ والذي يحاصره أهل التقليد وأهل التغريب جميعاً ـ فإنه يحاول صياغة مشروعه الحضاري العربي الإسلامي .. لكن تفرّق رموزه ، يجعله عاجزاً ، حتى الآن ، عن إحداث التَّحولات النوعية التي تغيّر من السكون والركود السائدَين في هذا الميدان !..

☆ ☆ ☆

ولعل في :

١ ـ انتظام أعلام الإحياء والتجديد في مؤسسات فكرية ، لها منابرها الثقافية ، ومراكزها البحثية ..

٢ ـ وفتح قنوات التأثير والتأثر بين (أهل الفكر) ـ في تيار الإحياء والتجديد ـ وبين (أهل الحركة) ـ في تيار الصحوة الإسلامية ـ..

٣ ـ وإقامة حوار فكري منظّم ، ومرحلي ، ومخطط له ، بين هذه التيارات الفكرية الثلاثة ـ أهل التقليد .. وأهل التجديد .. وأهل التغريب ـ لعل في إقامة هذا الحوار ما يؤدي إلى إقناع أهل التقليد ـ أو الكثيرين منهم ـ باستحالة صبّ واقعنا ـ الحاضر والمستقبل ـ في قوالب الماضي .. وإقناع أهل التغريب ـ وخاصة أصحاب الاجتهاد الخاطئ منهم ـ باستحالة صبّ حاضرنا ومستقبلنا في قوالب الحضارة الغربية .

وبضرورة اكتشاف (مساحة الوحدة على الأصول) بين

مختلف التيارات ، و (مساحة التعددية في الفروع) ، بين هـذه التيارات ..

وبضرورة التّمييز بين (الثـوابت) و (المتغيرات) في تراثنـا .. والتمييز في مواريث الحضـارات الأخرى بين (المشترك الإنساني العام) وبين (الخصوصيّات الحضارية) ...

فبذلك ينمو التّيار الوسطي ـ تيـار الإحيـاء والتّجـديـد ـ.. وتجتمع أغلب طـاقـات وإمكانـات العقل العربي والإسلامي على معـالم المشروع الحضـاري الـذي يفجّر الإبـداع في حقـل الفكر والثقافة ، فتتجاوز الأمة أزمة ثقافتها العربية والإسلامية ، التي دخلت بها في المأزق الذي تعيش فيه ..

إن للتَّقدم الحضاري سننـه وأسبـابـه .. وكـذلـك الحـال مع التَّخلف والتَّراجـع الحضـاري .. وإن للنهضـة قـوانينهـا وشروطها .. وإن في طرح القضية ـ قضية أزمة الفكر الإسلامي الحـديث ، في أبعـادهـا المختلفـة ، وجوانبهـا المتعـددة .. ومنهـا مشكلات :

● الموقف من العقل .. وضرورات ، ومعاني تحريره ..

● والموقف من الموروث الفكري .. والعلاقة بينه وبين الجديد والتَّجديد .

● والموقف من الهوية الثقافية .. وعلاقتها بكل من الأصالة والمعاصرة ..

● وموقف (الأنا : الحضاري) من (الآخر : الحضاري) ..

● وهذا الانقسام القائم في الفكر المسلم حول مرجعية المشروع الحضاري ، الذي لا بدَّ من صياغته كدليل عمل ينير الطريق إلى النهضة الإسلامية المنشودة ..

إن طرح هذه القضية ، بجوانبها المتعددة وإدارة الحوار حول هذه القضايا والمشكلات ، وحول سبل الحلّ لها والخروج من مآزقها ، لهو إسهام طيب .. وخطوة على طريق تنمية الوعي بالذات الإسلامية .. وتنمية الولاء والانتماء للمشروع الإسلامي .. وتحريك الطاقات الإسلامية على درب الإحياء واليقظة والإصلاح ، لتعود للإسلام ، مرة أخرى ، إمامة

الدنيا ، ولتمارس أمته ، بالنسبة لغيرها من الأُمم ، دور المرشد الأمين ـ لعل الله أن يبارك المسعى نحو عودة الشهود الحضاري للإسلام والمسلمين في هذا العالم من جديد .. وصدق الله العظيم : ﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْناكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونوا شُهَداءَ عَلى النّاسِ ويَكونَ الرَّسولُ عَلَيكُمْ شَهيداً .. ﴾ [البقرة : ١٤٣/٢] .

وعلى الله قصد السبيل .. منه نبتغي العون والسداد والتوفيق ..

المصادر

- **القرآن الكريم .**
- **كتب السُّنة :**

[صحيح البخاري] طبعة دار الشعب ـ القاهرة .

[صحيح مسلم] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

[سنن التّرمذي] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

[سنن النَّسائي] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

[سنن أبي داود] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

[سنن ابن ماجة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

[سنن الدّارمي] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

[مسند الإمام أحمد] طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

- **كتب أخرى :**

جارودي (روجيه)

(ماركسية القرن العشرين) ترجمة نزيه الحكيم ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(الإسلام والاشتراكية) ـ محاضرة ـ مجلة (الطليعة) ـ القاهرة ـ يناير سنة ١٩٧٠ م .

سلامة موسى

(البلاغة العصرية واللغة العربية) طبعة القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

(اليوم والغد) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .

طه حسين (دكتور)

(مستقبل الثقافة في مصر) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .

(في الشعر الجاهلي) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م .

(طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقاً) ترجمة عبد الرشيد الصادق المحمودي . طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .

علي عبد الرازق (الشيخ)

(الإسلام وأصول الحكم) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

(الاجتهاد في نظر الإسلام) تعليق ـ مجلة (رسالة الإسلام) مايو سنة ١٩٥١ م .

علي عقلة عرسان

(الفصحى والعامية والحوار المسرحي) ـ بحث ـ طبعة الرياض سنة ١٩٩٠ م .

القرطبي

(الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة .

لطفي السيد (أحمد)

(قصة حياتي) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

محمد إبراهيم الجزيري

(سعد زغلول : ذكريات تاريخية) طبعة كتاب اليوم ـ القاهرة .

محمد حسين هيكل (دكتور)

(حياة محمد) طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

(في منزل الوحي) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

محمد عبده (الأستاذ العام)

(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد عمارة (دكتور)

(جمال الدين الأفغاني المفترى عليه) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤ م .

(الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل) طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م .

(معركة الإسلام وأصول الحكم) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

محمد فؤاد عبد الباقي
(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب - القاهرة .

محمد محمد حسين (دكتور)
(الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

ميشيل عفلق
(في سبيل البعث ـ الكتابات السياسية الكاملة) طبعة بغداد ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ م .

وينسنك (أ . ي)
(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النّبوي الشريف) طبعة ليدن ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩ م .

● دوريات :

[الأهرام] سنة ١٩٧١ م .

[رسالة الإسلام] ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥١ م .

[السياسة] ـ القاهرة ـ سنة ١٩٢٥ م .

[الطليعة] ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٠ م .